

الفصل الحادى والعشرون

مفادرة البندقية . اتفاق بين البنادقة وأهل ميلان .

فرارا . البابا يوجين وبيزنطة .

انقصاد المجمع . الحكومة .

...

حينما غادرت البندقية للذهاب إلى الأقطار النصرانية الأخرى خلفت ورأى بها ما جئت به معى من بضائع الشرق ومن بينها العبيد وكذلك أموالى وكل ما اشتريته ، وتركت ذلك كله فى رعاية صديقى العزيز السيد «دومينيچو فنت» من تجار البندقية ، ولم أحمل معى المال غير ما قدرته كافيالسد احتياجائى وغير صكوك التبادل النقدى على جماعة معيفة من التجار فى مدينة «بروجس» بقلاندر، ورحلت فى قارب ونمت ليلة رحيلى فى مكان اسمه «شيوچيا» قد بنى فى البحر شأنه شأن البندقية وهو خاضع لها ، وكان به بعض سفن محترقة كانت قد عطبت فى الواقعة التى جرت حين قدم الجنوبية إلى هذه البقعة لمحاربة البنادقة .

فلما كان الصباح رحلنا حتى إذا قطعنا مسافة أربعة أو خمسة أميال دخلنا نهر «بو» أحد أنهار الدنيا العظمى ، أما الفرع الذى دخلت منه فكان واحدا من ثلاثة فروع ، والنهر كبير جدا حتى إنه حدث فى كثير من مرات الحرب التى كانت تنشب بين البنادقة وبين دوق ميلانو^(١٢٦) أن أنزل كل من الفريقين فى النهر أساطيل كبيرة ، وبه من السفن أعجب ما تسنى لى رؤيته منها ، إذ أنها

مراكب شرعية ضخمة مستوية القاع مما يذلل لها السير في المياه الضحلة، وعلى سطحها قلعة خشبية كبيرة ذات برج شاهق يضعون فيه ما تستلزمه مدفعيتهم من الذخائر الحربية كالتقابل والافع وما شاكلها ، ويقوم المجدفون في القسم الأسفل حتى يكونوا بمنجاة من الهجوم عليهم ، ولا تسير هذه المراكب بالقلاع كما أنها لاتصنع للإبحار لأنها تكون سهلة الانقلاب ، ولكنهم يستخدمونها في حروبهم العنيفة ، وقد حدث أثناء وجودى هناك أن أفلح البنادقة بأربعين سفينة منها محاربة دوق ميلانو قصد الاستيلاء على إحدى المدن فخرج المبارديون لصددهم ، ويقال إنه جرت بين الجانبين معركة عنيفة .

ويستعمل المبارديون نوعا صغيرا من القوارب يسمى « جلاباجو » (١٢٧) قد غطى كله بطبقة من المعدن حتى ليبدو وكأنه القبو ، وبصطنعه القوم لإشعال النيران في سفن الآخرين على حين أنه ليس من الممكن إنزال الضرر بهم ، على أن ذلك لم يُعجز البنادقة فقد بعثوا رجلا غطس تحت الماء وسبح حتى بلغ سفن العدو وأعمل فيها ثقباً بمشقاب كان معه، ففقد المبارديون ثلاثة من مراكبهم قبل أن يقفوا على ما حدث ، على حين خسر البنادقة أربع سفن التهمت النيران ، واستمرت المعركة طويلاً ثم انتهت بهزيمة البنادقة وفقدانهم ست عشرة سفينة من سفنهم ، فلما استردوا ما استطاعوا استرداده انحدروا مع النهر وعادوا إلى المدينة ، وعلى هذا المنوال تنشب الحرب دائماً بين البنادقة والمبارديين .

* * *

تابعت رحلتى في نهر البسو حتى بلغت مكانا في الداخل يسمى «فرانكولينو» وهو تابع لمركز فرارا ، ومن ثم ذهبت إلى «فرارا» حيث

كان هناك إذ ذاك البابا وإمبراطور القسطنطينية في حشد كثيف من الناس الذين اجتمعوا لمشاهدة الجمع الذي عقد قصد التوحيد بين الكنيسة وبين الإغريق (١٢٨).

فلما كان اليوم التالي صحبت كثيراً من القشتاليين وذهبت لرؤية البابا «إيوجين» الذي تلقاني بالترحيب العظيم ، ورغب في معرفة تفاصيل رحلتي إلى بيت المقدس والوقوف على أخبار سلطان مصر والسلطان التركي الكبير، وكذلك عن الإمبراطور نفسه ومدى سلطته ، فأنبأته بكل ما طلب وأفضيت إليه بما لدى من المعلومات التي رضى بها، ومن ثم غادرتة .

ومضيت مساء ذلك اليوم للقاء إمبراطور اليونان وأعطيته كتاباً من زوجته وأخيه الطاغية ، فتلقاني فرحاً قائلاً إنني من عشيرته ومن أهل بلده ، ثم قرّبني منه وأجلسني إلى جواره مستفسراً عن أخبار وطنه ، وطلب إلى أن أزوره كل يوم من أيام إقامتي، وأبدي ما يكون عليه من المسرة التامة إن أقت معه ، وبذلك توثقت المعرفة بيننا ، وكان الإمبراطور يعيش في قصر من قصور مركيزدى فرارا على سطح الماء في « بواتيلو » التي يسمونها بالجنة ، وهي بقعة رائعة جداً .

إستأذنت ذلك اليوم واستجبت التماس القشتاليين الذين كانوا هناك ، وحلقت لحيتي التي كفت قد تركتها تطول زمناً ليس بالقصير ، ثم ارتديت زياً الوطنى وذهبت ثانية لمقابلة الإمبراطور الذي ما كاد يرانى حتى قال إنني أخطأت في حلق لحيتي إذ أنها غاية ما يشرف به الرجل ويكسبه الوقار ، فأجبتة: « لسكنفا يا مولاي نؤمن بمكس ذلك ، فنحن لانطيل لحانا إلا في حالة الجروح الخطيرة » وتكلمنا عن هذا الموضوع فترة من الوقت ثم عدنا إلى مسائل اليونان ،

واستفسرنى فى دقة عن الأوضاع هناك وعن زوجته وأخيه وحالة البلد وماذا يفعل الزكى الكبير ، وعن حرركاتى منذ أن كنت هناك ؛ فأجبتة عن كل شىء أعلمه .

وكان على الإمبراطور أن يذهب هذا اليوم لرؤية البابا ففضيت فى صحبته ، وإن حملة بعض الرجال على كرسي لما كان يشكوه من مرض النقرس الذى أعجزه عن السير ، فاسقبله البابا باحترام عظيم فى قاعة فسيحة أعدت لذلك الغرض وكان معه عدد من الكرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة ومركزى دى فرارا وغيرهم من سادة الإقليم وقد جلس كل فى مكانه الخاص به ، فكان على اليمين مقعد إمبراطور ألمانيا تتلوه كراسى ملوك المسيحية وأمرائها ، وعلى اليسار كرسي إمبراطور اليونان وبعض رجال الدين ، وتوسط الجانبين مقعد البابا وكان عالياً فوق بقية المقاعد الأخرى ، واستمر انعقاد مجلسهم فى هذا اليوم مقدار ثلاث ساعات أو أربع وهم يناقشون - كما قيل - فيما بينهم بعض الاختلافات المتعلقة بالإيمان بين الإغريق واللاتين .

ثم انصرفنا بعدئذ ودخل البابا حجرته بينما عاد الإمبراطور إلى قصره مصحوباً بأعضاء رحلته ، لأنه كان قد أحضر معه من اليونان رفقة كبيرة من الناس خرجوا جميعهم تقريباً فى ثياب طويلة ولحى كبيرة ليكسبوا أنفسهم مظهر الجد والوقار ، وكانوا فى الواقع أطيب صحبة ، وإن دأخل المرء شعور بأن أكثرهم كانوا من حاشيته وبطانته أكثر مما يريد أن يُظهِرهم به ، ويقال إنه كان معه ما لا يقل عن ألف شخص .

ودخل الإمبراطور قصره وانفض الجميع من حوله إلا أنا فقد بقيت معه وذهبت بصحبته ودعانى لمشاركة طعام الغداء على مائدته ، وكان شديد الرعاية بى .



الإمبراطور يوحنا التامن باليولوجس
في كنيسة قصر ريكاردى بفلورنسا

obeikandi.com

بعد ثمانية أيام من ذلك الحمل حل عيد القربان المقدس ، وعلى الرغم مما كان بصحبة البابا والإمبراطور من حاشية عظيمة رائعة إلا أن احتفاءهما به كان على صورة مهينة قد تشأوهما فيها قرية لا يزيد عدد أهلها عن عشرة أنفس ، وذلك لتبديل العادات المرعية في هذا الميدان نظراً للجموع الفقيرة من الأعراب التي وجدت حينذاك ، وبينما كنت هناك رأيت رسولين جاء في أمرهم إلى البابا ، أحدهما من دوق برجنديا يسأله الإذن بسماع القداس بعد الظهر ، وثانيهما من قبيل دوق ألمانيا يلتمس السماح بأن يكون القداس قبل منتصف الليل .

* * *

ومدينة فرارا من أبداع الأماكن التي رأيتها ، وهي تضاهي « بلد الوليد » في سماتها وإن امتازت عنها ببيوتها الحسنة جداً وشوارعها الجميلة ، ثم إنها حسنة التسوير ذات أبراج وخنديق وبها قلعة واقعة على أحد جوانب نهر بو ، ورغم جمال داخلها إلا أن خارجها أعظم جمالاً ، وترتبتها شديدة الخصب وتتناثر بساتين الفاخرة في شتى جهاتها ، وتدفع المدينة للبابا الجزية ، ويقال إنه استلم منها في إحدى المرات مائة ألف أو مائة وخمسين ألف دوكات ، ولكنها أخذت في التناقص بمقدار عشرة آلاف أو ستة آلاف دوكات ، حتى بلغت الآن ثلاثة آلاف دوكات وسأشرح حالاً سبب هذا .

ذلك أن مركيز دى فرارا من أهل فرنسا ويقال أيضاً إنه من سلالة « جالون »^(١٢٩) ، وتتبع تقاليد معينة خاصة بالخبز معه ومع الآخرين من نفس البيت كوضعهم الرغيف على المائدة مقلوباً وإدارته بالعكس ، ويقال إنه جاء إلى ملك فرنسا سائلاً إياه أن يمدّه بالسلاح وأن يعفيه من هذا التقليد ، فأمدّه

للملك بالسلاح، ولكنه قال إنه لا يستطيع إجابة مطالبه الثانی، وهذا المركيز سيد
 كبير ورث كثيراً من المدن الجميلة والبلدان والقلاع، بالإضافة إلى دخل
 يقدره القوم بثلاثمائة ألف دوكت، وهو رجل شديد المرح بهي الطلعة كلف
 باللمو والغزل، ويقال إن لديه على الدوام عشراً أو اثنتي عشرة محظية في قصور
 خاصة له بالمدينة، ولا يقل عمره عن ثمانين سنة، وهو صفيير الجرم مفرط السمعة،
 ويقال عنه فيما يقال إن زوجته - وهي ابنة أحد أدواق ألمانيا (١٣٠) - تولعت
 غراماً لابن له من زوجة أخرى، وتطور غرامهما إلى حد نسي الابن فيه واجبه
 حيال أبيه ونسيت الزوجة واجبها تجاه زوجها، فانغمسا في شهواتهما الجسدية،
 فلما علم المركيز بالخبر من أحد خدمه فاجأهما وهما يرتكبان الخطيئة، فبعث بهما
 إلى قضاة البلد ليقرروا الحكم الذي يوقعونه بهما، فعاتبه كثير من سادة البلد
 وغيره حتى إن البابا توسل إليه أن يسلك سبيل الرحمة، فكان رده على الجميع
 أنه لن يأمر بقتلها أو المنّ عليهما بالحياة بل يترك تقرير ذلك للقضاة يحكمون بما
 يرون، فقصوا - في حضوره - بقتلها، فأخذوها في الحال إلى حيث تنفذ العدالة
 وأنفذوا الحكم فيهما، ولو رحننا نصف كل ما حدث لاستغرق ذلك وقتاً طويلاً،
 ولكن المركيز أمر بتهيئة زورق كبير ركبه وأبحر به إلى بيت المقدس، فلما
 عاد تزوج من ابنة دوق آخر من أدواق ألمانيا، وكانت فتاة شديدة الجمال
 في الخامسة عشرة من عمرها بينما هو في الثمانين، ومن ثم فلا مشاحة إن
 وقعت بلية أجلّ من الأولى .

وللمركيز عدة أبناء من زوجته الأولى لا زالوا في دور الطفولة، كما أن له
 ابناً شاباً من أم ولد في الثلاثين من عمره، على جانب كبير من الفضيلة إلى
 جانب أنه فارس في الحرب مغوار، ولما رأى المركيز أن إيطاليا لا تعرف أبداً

السلم وأنه لا بد تارك أملاكه لهؤلاء الأطفال الذين لا يعرفون كيف يحكمون —
مما سيؤدى حتماً إلى المضرة — فقد اعتزم ترك أملاكه إلى هذا التغل ، ومن ثم
اعترف بأبوتة الشرعية له ، وقرره وريثه في كل ما يملك ، وأمر الناس بتقبيل
يديه واعتباره حاكمهم ولقد استشار المركز البابا في ذلك فأذن له ، ثم أصدر
المركز أمره بإعطاء أكبر أولاده الشرعيين - وكان لا يزال صغيراً - نصف
الدخل ، وأن لا يكون له من الحكم شيء .

ولقد رأيت ذات يوم هناك احتفالا كبيراً في القصر حضره جمع غفير
من علية القوم من الرجال والنساء وأقيم استعراض ، فلما فرغوا منه تسابقت
السيدات جميعهن في الجرى لمسافة معينة قد وضعت في نهايتها ثلاث قطع
من القماش : إحداها من الحرير المطرز ، والثانية من الخمل القرمزى ، والثالثة
حمر اللون ، فالت الفائزة الأولى القطعة الحريرية والثانية قطعة الخمل
والثالثة الحمراء ، ولكن لو كانت هناك^(١٣١) « جراندبلا دي ألكوديا »
Garandilla de Alcudia لقطعت المسافة ثلاث مرات ولربحت جميع الجوائز .

والمركز رجل مرح ، فيه ما يفصح عن عرقه الفرنسى .

* * *

ولقد بقيت في هذه المدينة عشرين يوماً أستجم وأتأهب للقيام برحلتى
إلى ألمانيا ، واشترت من الدواب ما أحتهجه أنا وجماعى ، فلما تم كل شيء
مضيت إلى إمبراطور اليونان مستأذناً إياه في الرحيل فسألنى أن أعود لزيارته
مرة أخرى قبل عودتى إلى إسبانيا ما دام لا بد من عودتى إلى البندقية لأخذ
بضاعتى فوعده بذلك ، ورحلت من « فرارا » واجتزت منطقة الحدود إلى
مدينة تسمى « بارما » على نهر « بو » وتابعة لدوق ميلان .

فلما اجتزت النهر وجدت « نيكولا^(١٣٢) بتشنيو » قائد عام الدوق على رأس عشرين ألف فارس وهم يؤلفون أجمل فرقة وقعت عليها عيناي ، ويقال إنه كان ذاهباً للاستيلاء على بولونيا التابعة للبابا ، فكثت ثلاثة أيام في « بارما » لأشاهدهم وهم زاحفون ، وكان من أجمل المناظر رؤية فرقة من الرجال مثل هؤلاء رائعة التسليح ممطية صهوات جيادها وقد جهزت بكل ما هو لازم للحرب ، وأحسن من هذا كله أن يكون على رأسهم مثل هذا القائد الفطن القدير .

وفي هذه المدينة أحسن أنواع السكريز التي رأيتها .

ذهبت من هناك إلى مدينه « بياتشزا » التابعة لنفس الدوق ، وهي أيضاً مدينة كبيرة يقطنها سبعة آلاف أو ثمانية آلاف شخص ، فلما كان اليوم التالي رحلت عنها إلى « ميلانو » الضخمة التي تعد من أعظم مدن العالم المسيحي ، بل إن الواقع يؤكد ما يقوله الكثيرون من أنها أعظمها جميعاً ، ومع عدم اكتراث القوم بتسويرها إلا أنه يحيط بها فندق كبير له متراس ضخم وبداخله المدينة وهي حسنة البناء ، وشوارعها جميلة جداً . وإن رؤية ميلان في يوم عمل لأروع وألذ من مشاهدتها في يوم عطلة ، فشوارع صناعات الأسلحة وبيوتهم أبهى ماتكون منظراً ، وكذلك دور صناعات الرماح والسرّج والخياطين الذين يصنعون ملابس الحرب وأدواتها ، وهم الذين يعرفون كم عدد حكام إيطاليا وكم بها من قواد الجيوش ومارنك كل منهم ، وجميع هؤلاء الحرفيين مجهزون بكل شيء ؛ يستطيعون معه إمداد هؤلاء جميعاً بكل ما هم في حاجة إليه ، مهما عظمت مكانة الطالب في إيطاليا .

وجميع الصناع مهرة بارعون ، ويقومون بإنجاز أعمالهم في انتظام .

ويوجد بالمدينة المكان الذي يعيش فيه الدوق، وهو قصر بالغ الروعة، عظيم الاتساع، يكتنفه سور قوى ضخم فيه شرفة حصينة جداً، وله خندق عميق واسع يخترقه النهر الذي يصطاد منه الأهالي كثيراً من السمك، ويقوم هذا المكان على أرض مستوية على أحد جانبي المدينة. والواقع أنه لا يوجد في كل أرجاء «لبارديا» بيوت مشيدة على الصخور ولكن بناؤها في السهول لا يجعلها بحال من الأحوال أقل منعمة، إذ إنها محاطة من جميع نواحيها بالخنادق.

وتزخر هذه المدينة بكثير من الكنائس والأديرة الشهيرة لاسيما كنيسة الكبري التي لا زالوا يعملون في بنائها حتى اليوم والتي يسمونها «بالقبة» وهو بناء فخم جداً، ويرتلون فيها القداس الأمبروزي الذي هو عكس قداسنا، كما علمت أيضاً أنهم يختلفون عنا في أداء الصوم الكبير.

ويقوم بها دير غني جداً لجماعة الإخوان المبشرين قد دفن فيه القديس بطرس الشهيد الذي يعتقد أنه استشهد في هذه المدينة.

ولا يسمَح دوق^(١٣٣) ميلان لأحد ما أن يراه، ويعللون ذلك بخوفه من أن يدس له ذلك الأحد السم، لكن حدث في ذات يوم أن كان في بستان هناك فرأيته وتحدثت إليه فتبينت أنه رجل فطن رشيد، جاد شريف، ضخم البنيان والتركيب، ذو أنف طويل جداً، حليق الرأس عاريها، ولم يكن يقوم على خدمته كثيرون، ويقول الناس عنه إنه لا يخجل بأحد غير المحاربين وحلة السلاح الذين يقيمهم على الدوام في المعسكرات وميادين القتال، والواقع أنه مصيب في تقدير أمثال هؤلاء الرجال.

وليس لهذا الدوق من ابن أو بنت سوى واحدة من أم ولد، زوّجها لكونت فرنسكو الذي هو الآن دوق ميلان^(١٣٤).

وليس للمدينة ندّ أو ضريب بين المدن المسيحية في مساحتها وكبرها وعدد سكانها : أشرفاً كانوا أم صناعاً ، ويقولون إن دخل الدوق من المدينة وحدها يبلغ ألف دوكات في اليوم ، ولا يستطيع أحداً دخول المدينة إلا إذا حصل أولاً — عند دخول أراضي الدوق — على شهادة تثبت أنه قادم من بلد صحى غير موبوء بالطاعون ، وهم يلتزمون هذه القاعدة أشد الالتزام ، ويقال إنه لم يصب أى جزء من القطر بالبواب منذ ستين عاماً .

واستفسرت عن أمور كثيرة تتعلق بحكومة المدينة وهى منظمة جداً ، وكان استفسارى أكثر عن أحوال أهل بيت الدوق ورجاله ، ويقال إنه محرّم على أعضاء مجلسه الحكومى أخذ مال إلا منه . وإذا كان ثمت ضرورة تستدعى عقد هذا المجلس وتتطلب رأيه أرسل إلى كل عضو من أعضاء المجلس ورقة مكتوبة تتضمن المسألة التى يراد البت فيها ؛ فيكتب كل واحد رأيه فى أسفل الورقة دون مشاورة رفاقه ، فإن خالف أحدهم هذا المنهج وحاد عن هذه الجادة إلى غيرها أنزل به الدوق العقوبات الشديدة . ثم يقرأ الدوق رأى كل عضو من أعضاء المجلس ويختار من بينها ما يراه أحكمها .

ولقد استجقت قراراته الثناء العظيم خلال حكمه .

الفصل الثاني والعشرون

الطريق إلى ألمانيا . عبور الألب . ممر سنت جوثار . بازيل .
الحمامات . غسل الذهب . ستراسبورج . الحيطنة
ضد النار . ميتر . الرين . كوبلنز .
الوصول إلى كولونيا .

...

رحلت من ميلان ميمما شطر ألمانيا ، ولما لم أصل إلى أى مدينة هامة
تستحق الإشارة فليس لدى ما أقوله ، غير أننى وجدت كثيراً من الأماكن الخربة
التي أنت عليها النيران ودمرها القائد الإيطالى الكبير «فرانشينو كاني»^(١٣٥)،
فلما كان اليوم الثالث من مفادرتى ميلان أدركت مدينة ألمانية يسمونها
«لوسرسا»^(١٣٦)، غير أن الضرورة ألحّت علىّ - قبل تمكنى من دخولى إياها -
أن أضع جميع الدواب والأحمال على المراكب ، وأن أعبر بحيرة ضخمة تستمد
ياها من جبال الألب ، وهى بحيرة شديدة العمق تمتد مسافة أربعة فراسخ
تقريباً وتزخر بشتى أنواع الأسماك التي يقال إنها أشهى ما تكون طعاماً ،
وتحتوى هذه المدينة على ما يقرب من ألف وخمسمائة مسكن ، وهى حسنة
التسوير ، تزينها الدور الجميلة المشيدة على الطراز الالمانى وبداخلها المواقد ،
وتزخر بالحانات الرائعة .

* * *

ولقد غادرتها فى اليوم التالى ووصلت إلى سفح ممر سنت جوثار الموجود
فى بقعة عالية من جبال الألب ، وشرعنا فى ارتقائه غداة وصولنا بعد اتخاذ

الإجراءات اللازمة والاستعدادات الضرورية ، وكان الوقت إذ ذاك أخريات شهر أغسطس حيث يذوب الجليد بسبب شدة الحرارة مما يجعل السير بالغ الخطورة ، ويستعمل الأهالي في تلك الجهات ثيرانا ألقت عبورها ، ومما يستعملونه نوع من الدواب يسير في المقدمة وهو يجر جبلا طويلا قد شُدَّت إليه مقطورة تشبه النورج القشتالي^(١٢٧) ، يجلس عليه المسافر حيث يمسك حصانه خلفه بلجامه ، وبذلك يتم عبور الممر في أمان ، فإن قُدِّر حدوث مضرة لم تتمدد هلاك الثور .

وحين يجتاز المسافرون المعابر الضيقة ويكون الناتج المغطى للجبال على الجانبين موشكا على الانهيار فإنهم يطلقون النيران حتى تقساقط تلك الثلوج التي تكون دائيةً من السقوط ، ويحدث في بعض الأوقات أن تسقط الثلوج الهشة وتدفن المسافرين بين طياتها ، وتفيض القنوات والأنهار في ذلك الفصل بمياه الجليد الذائبة .

وهذه الجبال شديدة الازدحام بالسكان ، وحيثما سار المرء صادف في طريقه الخانات والساكنة الصغيرة ، ولقد تسلقنا في هذا اليوم صومعة القديس « جوثار » الموجودة في بقعة تكاد تمس السماء ، ومع ذلك فهناك جهات تشأوها ارتفاعا حتى ليقول الرهبان إنه لم يقسن لأحد ما رؤيته قمتها لأنها ملفوفة على الدوام في النجوم ، ومن هنا يستطيع المرء رؤية إيطاليا ، ويمكن لذوى البصر السليم الحد أن يروها بأكملها وذلك لارتفاع الجبال في هذه الناحية ارتفاعا هائلا على حين أن الأرض الإيطالية بالغة الانبساط والانخفاض بالنسبة إليها .

حين بلغنا هذه الجهة دفعنا أجر دوابنا وسرنا عبر الجبال في الطريق
الؤدى إلى « بازيل » الذى يزخر بكثير من السنايزر وغيرها من مخلوقات
والحيوانات ، كالماعز التى يتخذ الناس من جلدها « الشموا » .

وأخذنا سمتنا فى هذه الطريق ، وأحدرنا من الجبال والقمم ، وظلنا سائرين
مدة يوم عبر السهل حتى أدر كنا مدينة « بازيل »^(١٣٨) الرائعة ، حيث كان
المجلس الكنسى منعقداً يومئذ ، وقد ازدحمت المدينة بطائفة كبيرة من الخلق
من شتى الأجناس ، من بينهم كثير من الأشراف الإسبان رغم أن
« الفيريز »^(١٣٩) كان قد غادرها حينذاك ، ومع ذلك فقد ظل بها من بعده
كردينال « سان بدرو » وأسقف « كونيكا » وأسقف « بيرجوس »
وغيرهم .

وتقع المدينة على شاطئ النهر الذى ينبع من الألب ومن بحيرة
« شافاوزن » ، وهو سريع الجريان سرعة مخيفة ، وطالما حدث أن جرفت
المياه معها فى اندفاعها كتلا ضخمة من الثلج المتجمد كأنه الأحجار صلابة فدمرت
المباني وهدمت الجسور وقضت على كل ما اعترض سبيلها ، الأمر الذى يجعل
البجارة فى خطر دائم من مصادقهم إحدى العقبات التى يكون فيها هلاكهم
رغم ما يتمتعون به من براءة فائقة وحذر بالغ ، إذ لا يتأتى العودة مطلقاً
للمراكب التى تنحدر مع النهر فى جريانه لأنها لا تستطيع أن تشق طريقها ضد
تياره ، والواقع أن هذه هى الخطة التى يتبعها القوم فى السير مع التيار الذى
يصيب الإنسان بالدوار إن نظر إليه ، ويزخر هذا النهر بكثير من الأسماك
الشهية والمفيدة ، ومن بينها أسماك « السالمون » الشديدة الضخامة .

* * *

وتحفل مدينة بازيل بكل المنتجات الألمانية والأنبذة الرائعة وغيرها من المشروبات ، وهى حصينة التسوير رائعة البناء ، وتتألف دورها من عدة طوابق ذات مداخن عالية ، تزينها النوافذ الزجاجية المطلة على الشوارع ، وتمتاز معظم عمارتها بالأبراج ذات الصليبان ودورات الريح ، والمدينة جميلة جدا من الداخل، وهى أجمل ما تكون منظراً من الخارج، وشوارعها مرصوفة بالحجارة ، وتكثر فيها أحواض مياه الشرب ؛ أما كنائسها وأديرتها فبالغة الروعة ، وأما بيعتها الكبرى فمشيدة أحسن تشييد ويعقد فيها المجمع الكنسى اجتماعاته ، وبلغ سكانها - رجالا ونساء - فى الظرف غاية وفى الثراء منتهاه ، وتحكم المدينة نفسها بنفسها رغم تبعيتها للإمبراطورية ، ويقال إن أهل باذل لا يلتزمون للإمبراطور بشئ سوى استضافته للغذاء حين يكون بها ، وسوى إمداد، بزوج من السراويل القصيرة ، لكن فى استطاعته دعوتهم للحرب. وتتصل بالمدينة ضواح كبيرة أهلة بالسكان ، وقد توافد على بازيل جموع كثيفة من المسولين من شتى رحاب ألمانيا الذين جذبهم إليها المجلس الكنسى، ويكادون وحدهم يكونون فى مجموعهم مدينة كبرى .

ولقد سمعت أن « كريدنال سان بدرو » كان فى منطقة جبال الإلب فى حماماتها الساخنة التى يسمونها بالحمامات المقدسة ، وعلى بعد ميل منها تقريبا دير عظيم اسمه دير « ماريا ستيللا »^(١٤٠) الذى ظل الكريدنال مقيا به ستة أشهر، كراهية منه فى أن يدخل بازل مخافة أن يغضب البابا « يوجين » ؛ ولكنه كان يدبر أمور مولانا الملك من هذا المسكان ، ولقد ذهبت لرؤية الكريدنال الذى لقينى أحسن لقاء ، ولما كنت لا أزال أشكو من الجرح الذى أصابنى فى « تروى »^(١٤١) والذى يبدر على الدوام أن السفر يزيده سوءا فقد حملنى

الكردينال على الإقامة عنده تحت إشراف مطّيب بقدره رجال الدين والمدنيون على السواء أعظم التقدير ، ولا جدال في أنه أهل لهذا التقدير بفضل شخصيته للبارزة ، وفضائله السامية وأمانته الفائقة ، واستغرق علاجه إياي عشرين يوما عوفيت بعدها واقمت الشفاء على يده ، وينظر الرهبان إلى هذا المطيب بمحبة زائدة، إذ لم يقف الأمر عند أفضاله عليهم بل أقام لهم حجرات دافئة ، كما استنبط غير ذلك من المزايا لخدمة الدير الذي يقع عاليا في الجبال وفي مكان يعتبر أكثر أمانا من ألمانيا برودة .

* * *

ومضيت لرؤية الحمامات حيث ألقيت حشدا كثيرا من المرضى والحجاج الذين قدموا إلى تلك البقعة من جهات قاصية وفاء لنذور وعهود قطعوها على أنفسهم ، ولا يخطر ببالهم شيء من ناحية الرجال والنساء الذين يسبحون عرايا جنبا إلى جنب ، والذين جرت عادتهم أن يمارسوا بعض الألعاب ويتناولوا طعامهم وهم في الماء ، ولقد قابلت هناك سيدة كانت تؤدي فريضة الحج من أجل أخيها المأسور في تركيا ، وكثيرا ما ألقيت بعض العملات الفضية في للسبح وكانت فتياتها يغطسن وراءها يلتقطنها بأفواههن ، ويستطيع المرء أن يتصور ماذا يمكن في الهوا حينما يعملن رءوسهن إلى تحت، والقوم هنا ذوو أصوات جميلة حتى إن العامة منهم لينشدون بعض الأغاني بمهارة فائقة تحسبهم معها فنانيين .

* * *

لم يكذبتم شفائي من جرحي حتى التمسيت الإذن من الكردينال وعدت إلى بازيل في صحبة السيدة التي لقيتها في الحمامات، ولم أتركها حتى بلغنا مدينة

« كولونيا » التي كانت بها أملاكها ، وفي اليوم الأول من رحيلنا — بعد مغادرة الحمامات — سافرنا بمبحرين إلى مدينة تسقط فيها مياه النهر من مكان يبلغ برجين ارتفاعا ، وحينذاك أنزل البحارة الركاب وشدوا القوارب بأمراسي طويلة لتتحد مع المياه الساقطة ، حتى إذا صارت في الجهة السفلى مصوا إليها ثم عاودها ركابها لتنطلق بهم سريعة بقوة المياه المندفعة بعنف كبير من الجبال ، وبذلك وصلنا إلى بازيل ثم غادرناها بعد أن أقننا بها ستة أيام .

* * *

وصلنا بعدئذ إلى مدينة شاهدت على شاطئها جموعا من الناس تفسل الذهب من رمل النهر ، ويتبعون في ذلك الطريقة التالية وهي أنهم يضعون مائدة على مقعد طويل مجاور للمياه ، وتكون إحدى قوائم هذا المقعد على حافة النهر وقوائمه الأخرى مرتفعة ، ثم يضعون فوقه قطعا من الخشب أشبه بالسلام يكاد عرضها يبلغ ذراعا ، ويأتون بالرمل بعدئذ من مجرى القناة ويقذفون به إلى أعلى المائدة ، ويتركونه ينحدر تاركا وراءه نوعا من الطمي الأبيض عالقا بالسلام ، حتى إذا تجمعت لديهم منه كمية ضخمة وضعوها في حوض ماء مجاور لها حتى يمتلئ الحوض ، ولما كان الذهب ثقيل الوزن فإنه يترسب في القاع ، وحين يرفمون الطمي بأيديهم يمكنهم رؤية الذهب يبرق ، إلا أن الحظ لا يواتيهم كل يوم ، على أنهم يسكنون من هذا الذهب العملة المعروفة باسم « ذهب الراين » .

* * *

وتقوم على جانبي النهر المدن والقلاع متجاورة آخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، كما تقوم على شاطئه الكنائس والأديرة الرائعة ، هذا إلى وجود كثير من مستشفيات الجذام « اسنت لازار » مما تستحق المشاهدة ، ويقال إن انتشار هذا المرض راجع بالضرورة إلى كثرة أكلهم الناس السمك وإقلاهم الشديد من شرب النبيذ واستعمال الزيت ، ويروون فيما يروون أن إبننا لأحد أدواق ألمانيا قدم - منذ زمن غير بعيد - مع زوجته - وهي ابنة دوق آخر - ليقضى ليلة في أحد بيوت المجذومين ، فسوات لهم أنفسهم اغتصاب السيدة مما حمل الزوج على قتلها، فقتلوه هو الآخر ، فلما عرف أهلها الخبر قدموا وأحرقوا البيت بمن فيه ، لكن لو أردنا أن نروي كل ما حدث لضاق المكان عن استيعاب ذلك .

وفي اليوم التالي وصلنا إلى مدينة «ستراسبورج» التي تسمى في اللاتينية «بأرجنتينا» أى «مدينة الفضة» ، والحق أنها من أبهج المدن في العالم المسيحي إذ ينساب النهر فيها متخللا شوارعها . وهي ذات أسوار حصينة وحنندق شديد العمق ، حسنة البناء ، وشوارعها بهجة المنظر مستوية جيدة الرصف ، وتوجد بها كثير من المدافن كما تحفل بيوتها بالمواد ، وخاناتها جميلة ، وكفائسها وأديرتها رائعة في بابها مما تستحق المشاهدة لا سيما كنيسها الجامعة التي هي نسيج وحدها فناً ، ولها برج فخم به الساعة ، مما لم أر لها قط مثيلاً في الجمال ، ويقف على البرج - فوق الساعة - ثلاثة من القسس يتناوبون الحراسة فيما بينهم طول الليل ، وكلما دقت الساعة نفخوا في بوق أشبه ببوق الرعاة ولسكنه ذو دوى أضخم من دوى الطبله ، ويقول الناس إنما أقيم هؤلاء الرجال هناك كرقابة ضد النيران ، ويوجد في كل أبرشية جماعة من

القواد، فإذا دوى التغيير إنذاراً بالنار عرف كل رجل لواءه فمضى قديماً إليه ، وإذ ذاك يسير كل شيء وفق نظام معين ، فالبعض يحضر زكائب القش ، وآخرون يأتون بجرادل المياه والقفوس والخطاطيف الحديدية والرماح الطويلة ، وبذلك تكون جميع وسائل الإنقاذ موجودة في الحال ، ولقد ذهبت ذات ليلة لمشاهدة تغيير نوبة الحراس ، والواقع أنه منظر رائع جدير بالمشاهدة . وهذه المدينة رائعة حقاً .

ثم رحلنا بعدئذ إلى « مينز » ، التي يوجد على يسار داخلها مقعد شاقق الارتفاع من السكاس والحجر هو الذي يتم عليه انتخاب الإمبراطور^(١٤٢) الذي يتحتم حضوره إلى ها هنا وبقاؤه مدة ثلاثين يوماً ليرى عما إذا كان ثم أحد ينازعه وينكر عليه انتخابه ، وقد يحدث في بعض الأحيان أن يظهر له منافس يجلس على هذا المقعد ويحل محله ، وهذا رسم مفروض على كل المتنافسين حتى يتحقق الجميع أن الاختيار تم علناً .

...

ثم جئنا بعد ذلك إلى « مينز » وهي مدينة كبيرة جداً أهلة بالسكان حسنة التموين والثراء ، كما أنها واحدة من كبرى أسقفيات ألمانيا ، وتمتاز بكسفاثتها وأديرتها البالغة الجمال وسكانها الظرفاء ، وقد استقرت إقامتنا بها مدة يومين سافرنا بعدها إلى « كولونيا » ، ومن الحق أن نقول إن للرين منظرأ شديد البهجة ليس لجماله من ضريب في العالم كله ، وتقوم على جانبيه للدن الرائعة والقلاع العدة .

استمتمت بالجمال العظيم الذي يعجز الإنسان عن وصفه ، كما أن المدن

والقلاع مزدحمة بنازليها وبتاخم بعضها بعضاً ، وتزدان أبراجها بالصلبان العالية ودورات الهواء المذهبة . ووصلنا عن طريق هذا النهر إلى مدينة رائعة تدعى « كوبلنز » ، وفي مواجهتها على الشاطئ من النهر أبراج وحصون لورد « هانزبيرك »^(١٤٣) الفارس الذي خرج ذات مرة حاجاً إلى مزار « سنتياجو » حيث وقع في الأسر وحمل إلى « بيرجوس » ، ولم يستطع فكك أسره إلا بعد أن سمح لجماعة من تجار « بيرجوس » — الذين كانوا أسرى في ألمانيا — بالعودة إلى قشتالة ، فلما تم ذلك ردت على اللورد الفارس حريته ، لكن بينما كان في طريق عودته إلى دياره إذا به يقع في أيدي « فردند كونت فيلاندراندو » الذي استبقاه في أسره طلباً للقدية ، ومن ثم كانت رحلة حجه رحلة منكودة سيئة الطالع .

ولقد أسدى البعوض لي النصيحة بأن أسرع في مجاوزة هذه المنطقة نجفياً لأى ضرر يلحقني من هذا اللورد ، فامتثلتُ لإشارة هذا البعوض ، وكان في صحبتي — طوال ذلك الوقت — تلك السيدة التي ذكرت مقابلي إياها في الحمامات ، وحينذاك رحلت وأمضيت الليل في مدينة « كولونيا » العظيمة الرائعة وهي مقام تلك السيدة ، فدعنتني إلى دارها وأسبغت على كثيراً من التشريف خلال إقامتي لديها ، تلك الإقامة التي طالت حتى بلغت ثمانية أيام .

وفي اليوم التالي بعث إلى لورد « هانزبيرك » بأحد أولاده مع جماعة من السادة يسألني الذهاب إلى مزارعه حيث أجد للتعمة والراحة وحتى لا أصدق ما تقول به الناس بشأن نواياه ، رغبة منه في أن يتأكد السلم بينه وبين القشتاليين الذين لم يفعلوا أكثر من القيام بواجبهم ، وذكر لي رسله

أنه لا يجب أبداً أن يكابد القادمون ضراً يأتي من جانبه ، وتالوا أيضاً إن الإمبراطور بعث إلى اللورد في قصره رسالة يأمره فيها باستقبال أي فارس يأتي إلى تلك الناحية ، فشكرته شكراً جزيلاً على نيته الطيبة ، وذكرت له أن لا بد لي من المبادرة بالعودة إلى دوق برجنديا ثم أكر راجعاً إلى المجلس الكنسي ، وأرجأت زيارتي إياه إلى مرة قادمة ، ثم استأذنت في السفر .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

- كولونيا • الخانات • أسقف ديتريش • الكاندرامية •
- معجزة بالكنيسة • السوق • الرحلة في الراين •
- دوق كليفس • نيميجين • بوالى ديك •
- بروكسل • فيليب الطيب •

• • •

بقيت في مدينة كولونيا هنا في هناء عظيم وبدلت دواي نظراً لما كان قد حل من إنهاك بما كنت قد جلبته منها معي ، وكولونيا أغنى مدن ألمانيا وأجملها على الإطلاق ، إذ يقع الرين على أحد جانبيها ، وتمتد على الجانب الآخر الحقول والمرعى الفسيحة التي تشبه مثيلاتها التي تكثر في العادة بألمانيا ، وهي جيدة التصوير لها خندق عميق جيد وشوارعها لطيفة ، وتحفل بعدد من الصناعات الذين يمارسون شتى الحرف ؛ وتمتاز البيوت القائمة داخل المدينة بجملها وإنفاقها دور ضواحيها التي تشاؤها روعة وعدداً ، أما الفنادق ففائنة وجديرة بأن تستضيف أى ملك إن دعت الحاجة إلى مثل هذه الاستضافة ، وقد جرت العادة أن يتفق عدد من الأثرياء فيما بينهم على تأسيس نزل فيساهم كل واحد منهم بدفع قدر معين من المال لقاء تسلمه جزءاً من الأرباح يتناسب والبلغ الذي دفعه ، ثم يختار هؤلاء السادة من بينهم رجلاً شريف الأصل ليكون المضيف ، وحجتهم في ذلك أن المضيف الطيب يلائم النزلاء الطيبين ، وقد يحدث في كثير من الأحيان أن يرغب أحد الأفاضل في أن يعتكف عن الدنيا

حين تطعن به السن ، وإذ ذاك يأتى إلى التّيم على الفندق ويساومه على مبلغ يتقاضاه منه بقيمة حياته ، فيشغل حجرة وفراشاً ، ويتناول وجبتين رئيسيتين وأخرتين صغيرتين ويدفع قدرأ معيّنأ من المال للقداس ، فإذا وفى بذلك كله عاش رضى البال ما تبقى له من العمر .

وتوجد هناك أمور أخرى هامة فيما يتعلق بفنادقها مما لا تنق سردها زمناً طويلاً ، فقد فهمت أن بها حركة كبيرة وإدارة حكيمه والتسلية بها رائعة .

وبهذه المدينة سيد كبير هو كبير الأساقفة^(١٤٤)، أهلقته لهذه السيادة مكانته ومولده ، إذ أنه ابن أحد الأدواق ، ولكنه فى اعتقاده أجدر بالأمرالدينيوية منه بالمائل الدينية ، وقد كان أكرم الناس وأحفاهم بي ، وأحسست معه بألفة لا يحسها إلا من كان قد نشأ معه ، فطاف بي أرجاء المدينة راكباً ، وأرانى كنائسها وأديرتها وقصور السادة والسيدات اللأى — بدى لى — أنه لا يتأفف ممنهن .

والكنيسة الكبرى بالفة الروعة ، وهى من أفخم المباني ولا زال العمل فيها مستمراً حتى الآن ، وفى وسط أكبر الكنائس الصغرى مذبح صغير محاط بمخاطر حديدية حيث يرقد الملوك الثلاثة ، ويقولون إنه حدث منذ أيام قلائل سالفة معجزة بالفة على الصورة التالية :

ذلك أن الكنيسة الصغيرة الخاصة كانت قد كملت إلا من حجر كبير يعلو سطحها ، وبينما كان القوم يرفعونه لوضعه حيث يجب إذا به يقع من الجبال المشدود بها فوق البقعة التى سجيت بها أجساد الملوك الثلاثة ، وإذ ذاك

تحرك الضريح من تلقاء نفسه مسيرة خطوة ، فسقط الحجر واستقر إلى جانبه ،
وهذه الأجساد الثلاثة محفوظة كي يراها الناس من قمة الرأس إلى أخمص
القدمين ، وهي سليمة لم تمس ، ولا شك أنها آثار بالغة القداسة ، ومن ثم
يرعاها الناس ويوقرونها توقيراً عظيماً .

وبهذه المدينة دير للراهبات يتولى فيه جثمان العذراء القديسة « آرسولا »
وجثت إحدى عشرة ألف عذراء أخرى يتن معها ، وقد تلمت « آرسولا »
هنا الشهادة ، وهذا الدير كبير وهو مكان شهير للحجج

وفي أثناء إقامتي بالمدينة انعقد سوقها وعرض فيه كثير من أنواع المتاجر
لا سيما عدد من الخيول الإنجليزية وجياد السباق وحُصن الجرما أعجبنى جداً ،
والألمان شعب مثابر جداً ، وهم كما قلت بارعون على وجه الخصوص في
الصناعات اليدوية .

* * *

تركت كولونيا وسرت مفجراً مع النهر حتى جئت إلى بلدة تابعة لدوق
« كليفيس »^(١٤٥) والد أميرة « نغارة » ، وهو متزوج من إحدى أخوات
دوق برجنديا ، كما أنه إقطاعي كبير ذو أرض واسعة ودخل كبير وإن قيل إن
أحسن ما بيده من الأراضي قد سلبه من جيرانه بعدوانه الشخصي ، وقد تلقاني
الدوق لقاء كريماً جداً وأحسن استقبالاً وأمر بإطلاعي على شعاره الخاص
وعرفني بالشروط الخاصة به ولكنها بدت لي أشد ما تكون خشونة ، ولما
كان البابا قد أحلني من اليمين المتعلق بهذا الشعار الذي حملته فإنتي لم أستطع
الموافقة على ارتدائه .

* * *

رحلت من هذا اللورد وأنحدرت مع الراين على اليمين فحُتت إلى بلدة تسمى « نيميغن » أي « مايو الجديد » التي أسسها يوليوس قيصر ، وبها لوحة قد نقشت عليها القصة كاملة وهذه البلدة تابعة لدوق « جيلدرز »^(١٤٦) وهو من كبار الحكام بل لعله أغني من ذلك الحاكم الذي تركته حالا ، كما أنه متزوج من إحدى بنات دوق برجنديا .

وهذه البلدة أجمل بلدة اكتحلت بها عيناى من كل الوجوه ، فهي شديدة المناعة إذ بنيت على الصخور القائمة وراء سور قوى وخذق منيع ، فأقت بها ثلاثة أيام ، ولقيت دوقها الذي كان مقيا إذ ذلك على مسافة مرحلة خارجها في قصر له في الريف للركوب والصيد ، فتلقاني لقاء ليس أكرم منه ، ورأيت معه الدوقة وأبناءهما وبناتهما ، فرغبوا إلى أن أتناول الغداء معهم ، فلما حل المساء استأذنت منهم وعدت أدراجى إلى المدينة ، حتى إذا كان اليوم التالى سافرت وبلغت بلدة كبيرة اسمها « بوا - لي - ديك » واقعة في منطقة « براانت » وتابعة لدوق برجنديا ، وهى مكان شهير جداً رغم أنها غير مزدهجة بالسكان ، ويخترقها النهر في كثير من الأماكن . ويربى الناس من البجع ما يضاهى في كثيره أوز قشتالة ، ويقال إن الدوق يأمر بتوزيعه بين الناس الذين يربون الطيور ويقدمون إليه تقريرا عنها ، فإذا كانت أيام الأعياد أكلت واعتبرت من المبالغات في الترف ، وقد اشتريت هنا حصاناً بستة عشر دوكات وإن كان يساوى بلاشك مائة دوكات في بلدى .

* * *

رحلت بعدئذ إلى « ليلا »^(١٤٧) الواقعة هى الأخرى فى براانت

وتابعة أيضاً لدوق برجنديا ، وهى بلدة لطيفة جدا ، وقد جرت عادة أهلها على السفر فى عربات ، لكننى لم أستطع تحمل السفر بها لأتقى أوثر البحر عليها ، ومن ثم دأبت على الركوب على حين تبعنى رجالى فى هذه العربات .

وتتناثر الطواحين الهوائية بين مرحلة وأخرى فى القسم الأكبر من هذا الإقليم ، ويحرق أهله أحجار الكلس وقوالب الطوب بدلا من الخشب ، ولذلك يعمد صاحب كل أرض إلى إعدادها فى الصيف وتجفيفها فى الشمس ويحتفظ بها إلى دخول الشتاء ، ونار هذه القوالب لطيفة ويقال أنها نافعة جدا للصحة ، والخمر هنا شديدة الندرة ، ويشرب الناس الجمعة لرداءة الماء .

تركت « ليلا » إلى « مالينز » التى يسميها القشتاليون « ميليناس » ، وعلى الرغم من صغرها إلا أننى لم أر من قبل أو منذ ذلك الحين مكانا يدانيها فتنة ، ويجد الدوق مسرة كبرى فى الحىء إليها للاحتجام بها استجمام الشخص فى المدينة ، وليس له قصر فى البلدة ولكنه يتام فى فندق بلغ الغاية فى الروعة حتى إنه لا يصلح لهذا الأمير وحده بل لأعظم أمير على وجه البسيطة .

بقيت يومين بهذه البلدة التى أعجبتنى غاية العجب بفتنتها وجمالها ، ثم غادرتها إلى « بروكسل » الواقعة أيضاً فى برابانت ، فوجدت بها دوق برجنديا وزوجته^(١٤٨) الدوقة فقدمت لها احترامى ، فتلقيانى أحسن لقاء ، وقد حمل الدوق على ذلك أصله الفرنسى والحب الذى يكنه للقشتاليين ، أما الدوقة فلاصلها الإسبانى وقرابتها لمولانا الملك جوان إذ أنها ابنة

عمته ، وقد أمر الملك بإسكانى وتوفير المسكن لى وتهيئة كل ما يلزمنى
أنا ومن معى ، فاسترحت كل الراحة .

فلما كان اليوم التالى انكفأت إلى تصر الدوق الذى وجدته فى
القداس ، ثم رحت أستفسر عن ابن سنت بول^(١٤٩) حتى لقيته وقابلته
وأبلغته تحية « جوتير كويكسادا » الذى كان مرتبطاً بمبارزته وكنت
قد رأيته وهو يركب البحر إلى بيت المقدس ، وقد بعث إليه كلمة
يقول له فيها إنه سوف يعود على جناح السرعة للوفاء بالتزامه وزكى
نفسه للنفل ؛ فدننى منا الدوق وإذ سمع فحوى الرسالة قال مازحاً : « نعم
ما فعل موزين جوتير من ذهابه إلى القدس ثم اعتزاه العودة لقتل
رفيقه أو التغلب عليه ، وقد كان من الخير له أن يقوم بهذه الرحلة بعد
المبارزة » ، ولقد قال الدوق كل هذا مازحاً ، وأخذ النفل منذ ذلك
اليوم يولبنى أعظم اهتمام حتى لسكانى واحد من أقرب الناس إليه .

والنفل فارس رشيق ورجل شريف استطاع بفضل شجاعته الشخصية
أن يتقدم على الكثيرين غيره ممن يشارونه فى الأملاك ولكنهم دونه
احتراماً وتقديراً عند الدوق والدوقة وبقية السيدات ، وقد جمع بين
الروعة والشجاعة ، وأنعم عليه الدوق بوسام الأسطول الذهبى تقديراً
منه لفضله واستقامته ، ولم يكن أحد ما حتى ذلك الحين — قاصراً
كان أم غيره — قد نال هذا الوسام ، ولكن حين رأى الدوق والمجلس
ما عليه هذا الفارس من البسالة والرقة أجمعوا أمرهم على أن
ينعموا به عليه ، ويقال إن النوط الذى يلبسه الآن هو الذى كان لورد
« تريمويل » قد خسره بفراره فى أثناء القتال .

والمالغ رائع فى شخصه وتركيبه ، رشيق القوام ، وهو رجل حصيف لبق ، يبلغ من العمر الخامسة والخمسين ، وإن كان نحيفاً أميل إلى الاصفرار ، وفى وجهه ندبة من جرح أصابه فى القتال حين وقع فى الأسر ، ثم أطلق سراحه بعد دفع دية كبيرة دفعها الوصية أم دوق برجنديا التى يقال إنها تحبه حباً عظيماً .

وقد أرانى هذا الفارس قصر الدوق وللمدينة وكل شىء بها ، بيد أنه لا يوجد شىء يفوق فى جلاله رجال الدوق والدوقة وأسلوب الحياة التى يتقبلون فى مطارفها ، وهى أنخم حياة تسنى لى رؤيتها ، وفى ذلك الحين كان الناس الآتية أسماؤهم يمشون فى القصر لمنادمة دوق سانت بول القوى وزوجته وأتباعه ، وكونت « استامب » وهو يماثل الدوق فى قوته مع أتباعه ، وأميرة « نفارة » ابنة أخى الدوق التى تقيم فى مسكن خاص بها ، وكذلك أخوها « جون كليفيز » وسيدان آخران اسمهما « شارنى » و « كريكي » مع زوجتيهما وكثير من فرسان أهل بيت الدوق . ويقال إن هناك مائتى أنسة من أوانس الشرف يقمن دائماً بخدمة الدوقة ، وينام جميعهن ويأكلن فى القصر كما يفعل الفرسان الذين ليست لهم أماكن إقامة مستقلة ، ويدفع الدوق من جيبه الخالص جميع النفقات كما لو كان يدفع نفقته الخاصة ، وهو بيدولى من هذه الناحية عكس دوق ميلانو الذى ينزل جميع الرجال فى الحقل ولا يسمح لأحد بالمعيشة معه ، على حين أن الدوق يسكن الجميع معه ولا يسمح لأحد بالمعيشة خارج قصره ، غير أن دوق برجنديا يستطيع استبقاء فرسانه فى القصر لأنه يتمتع بالسلام والهدوء ، وقل أن يتمكن للراء من وصف جموع الناس

وتهديبهم وزينتهم ، فهناك سلسلة دائمة من المبارزات وكل ما يدخل الهجة على القلوب .

أما الدوق فرجل عظامى ذوعرق ضارب في الفضيلة ، رائع الطلعة لبق ، وهو طويل القامة وإن يكن نحيفاً بمض الشيء ، خفيف الحركة ، ذو نجدة ومروءة ، كما أن الدوقة بالغة الثراء جداً ، محبوبة كل الحب من رعاياها ولا يشأوها في حبهم إياها سوى زوجها ، ولم يرزقا من الذرية غير ولد واحد (١٥٠) .

...

ولقد أبصرت في البلاط رجلين كفيين من قشتالة يضربان على القيثارة ، ثم صادقتهما فيما بعد في قشتالة ، وحدث في أثناء إقامتي هناك أن بعث الدوق إلى عدة مرات مستفسراً مني عن الأماكن التي تهيأت لي زيارتها ، وكرر من الأسئلة ما أفصح عن رغبته في أن يكون إمامه تاماً بكل ما رأيت وفعلت ، وأظهر سروراً كبيراً بما أفضيت به إليه ، فمهما إياي شوقه للملح إلى غزوييت المقدس ، وهذا على الأقل هو ما بدأ لي من استفساراته ، وسألني عما إذا كنت راغباً في متابعة رحلتي أم أنني يرضيني البقاء في بلاطه ، فأجبت أنه لا بد لي - وقد زرت بلده وباريس - من العودة سريعاً إلى قشتالة ، إذ بلغ مسمي أن مولاي الملك أراد أن يحارب المسلمين بنفسه . ومن ثم اهتم الدوق بالأمر اهتماماً جدياً ، وأصدر أمره إلى النفل سنت بول بمرافقتي في تجوالي ، فإذا رغبت في الرحيل كان عليه مصاحبتي في ربوع أملاكه لحراستي ، وزاد على ذلك بأنه مستعد لتزويدي بكتب توصية منه إذا كانت ثمة ضرورة لذلك ،

فسرني هذا منه كل السرور؛ ثم توجهنا بعدئذ لمشاهدة المدينة وما هي عليه من الضخامة والثراء والقصور الجميلة التي يقوم في وسطها قصر البلدية حيث ينعقد المجلس، وليس لهذا القصر ضريب أبداً؛ كذلك مضييفا إلى خارج المدينة لرؤية بعض الإقطاعات التي يملكها الدوق والتي يمضى إليها التماساً للهو، وكان من بينها ضيعة بها منزل رائع جداً تحوطه حديقة كبيرة يبلغ محيط دائرتها قرابة فرسخ، تمرح فيها الغزلان والحيوانات البرية.

* * *

غادرت بروكسل في رفقة أحد الفرسان واسمه كابتن «سُلويس» الذي أوصاه بي النغل، وبلغنا عشية هذا اليوم مدينة لم تكن بها قطرة واحدة من النبيذ، فاقترحت أن نتابع سفرنا إلى «بروجس» إذ لا بد أننا واجدون بها بعض ما نريد، بيد أن الفارس أخبرني أن سيدة من ذوى قريبه هي رئيسة أحد الأديرة المجاورة، وأنه مرسل إليها سائلاً إياها عما إذا كان لديها شيء من الخمر، فعملاً أنفذ رسولا إليها، فأجابت الديرانية بأن لديها من النبيذ وفرةً بالغة، ولكنها لن تمدّه به إلا إذا وفد عليها لتناول العشاء وهو ورفيقه الفارس الإسباني، ومن ثم ذهبنا إليها فأكرمت وفادتنا غاية الإكرام ورحبت بنا أعظم الترحيب، فلما فرغنا من العشاء أخبرتنا أنها كانت قد حجت إلى «سنتياجو»، ولقيت حفاوة كريمة جداً من القشتاليين ولا تدري كيف تجازيهم عنها، وإذ ذاك التمسّت مني البقاء بضعة أيام عندها للاستجمام بعد ما كابدته من عناء الرحلة ومشقة السفر، وأنبأتني أنها سوف تعاملني كما

كما لو كنت ابنها ، فشكرت لها كريم متنها واستأذنتها في الرحيل ، تم
خرجنا بعدئذ قاصدين « بروجس » التي دخلناها مع الفسق ونزلنا في فندق
الملاك ، وحينذاك فارقتي كابتن « سلويس » ورحل إلى طيته بعد أن دعاني
لزيارته في بلده ومشاركته سروره ، فوعده الوفاء بما سأل .

...

الفصل الرابع والعشرون

بروجس . أراس . غنت .

انتورب .

...

بروجس^(١٥١) مدينة كبيرة بالغة الثراء ، وهي إحدى أسواق العالم الكبرى ، ويقال إن المدينتين اللتين تتنازعان السيادة فيما بينهما هما «بروجس» في فلاندرز بالغرب و «البندقية» في الشرق ، ومع ذلك فيبدو لي - ويتفق معي الكثيرون في ذلك - أن النشاط التجاري في بروجس أعظم مما هو عليه في البندقية ، ومرجع هذا الأمر أنه لا يوجد في الغرب بأجمعه مركز تجاري نشيط سوى ما في بروجس رغم ممارسة إنجلترا نفس التجارة ، ويقول الناس إنه يحدث في بعض الأحيان أن يجاوز عدد السفن المقلعة من ميناء بروجس سبعمائة سفينة في اليوم الواحد ، أما الحال في البندقية فعلى العكس من ذلك إذ لا يصل المدد إلى مثل هذه الضخامة ، لأن العمل في التجارة بالميناء قاصر على أهلها .

وتقع بروجس في إقليم كونتية فلاندرز وهي أهم مدنها ، هذا إلى ازدحامها بالسكان ، وهي ذات شوارع رائعة وبيوت جميلة ، كما تحفل بالكنائس والأديرة والخانات الفخمة ، وتمتع بنظام حكومي دقيق متقن سواء في الناحية القضائية أو سواها ، وترد إليها البضائع من إنجلترا وألمانيا وبرابانت وهولندا ووزيلند وبرجنديا وبيكاردي والجزء الأكبر من فرنسا ، وكأنها ميناء هذه

الأقطار جميعها ، والسوق الذي ترسل إليه كل منها بضائعها لبيعها للآخرين.
نظراً لوفرتهم في بلادهم .

وسكان « بروجس » أهل جد وعمل ، ولعل مرجع ذلك جذب أرضهم
لقلة إنتاجها من الحبوب ، ولا يوجد بها النبيذ ولا الماء الصالح للشرب
ولا الفاكهة ، ومن ثم فإن منتجات العالم بأجمعه ترد إليها بوفرة كبيرة ،
كما تصدر منها تجارات الدنيا من الأقمشة الصوفية وملابس « أراس » وشتى
أنواع السجاد والبسط وسواها من ضرورات الحياة التي يتوقف منها بها الشيء
الكثير ، كما يقوم هناك بناء ضخيم فوق مجرى كبير من المياه يتدفق من البحر
عند « سلويز »^(١٥٢) ، يستونه « لاهاله »^(١٥٣) التي تفرغ بها جميع البضائع
على الصورة التالية :

ذلك أن البحر في هذه النواحي من الغرب ينحدر بشدة ، وبين بروجس
وسلويز (والمسافة بينها فرسخان ونصف فرسخ) قناة كبيرة تشبه النهر
في عمقها ، كما توجد في أمكنة متفرقة بوابات مثل الطواحين الهوائية ، فإذا
فتحت اندفع خلالها الماء ، وإن أغلقت حيل بينه وبين التدفق ، فإذا كان
وقت المد شحنت السفن وأبحرت بما عليها من « سلويز » ، فإن بلغ الماء ذروة
ارتفاعه سدوا الميول ، وحينئذ تعود المراكب التي أفرغت ما عليها فحملت
جديداً ، وقد استقل الأهالي للمياه لحمل كيات ضخمة من البضائع ما بين صادرة
وواردة ، ولو كانوا يستعملون الدواب لنقلها لكلفهم ذلك أعباء جمة وكبدهم
مشقة عظيمة .

وتتمتع مدينة بروجس هذه بدخل كبير جدا ، وأهلها على جانب كبير
من الثراء ، وقد ثاروا أخيراً ضد الدوق^(١٥٤) وقت وجوده بالمدينة مما اضطره

إلى الحرب مع زوجته وحشمه ، ثم أخذ يستعد للقتال ويهيء نفسه له ، وشن حرباً على المدينة واحتلها بالقوة ، وانتقم منها أفضع انتقام في الأرواح والأموال ، ولقد رأيت بعيني رأس كثيراً من المشانق العالية حول « بروجس » حتى « سلويز » وعليها رموس الملكى .

وأهالى هذه الناحية شديدو التأنق في مظهرهم ، مسرفون في طعامهم ومأكلهم ، مبالغون في الأخذ بالكاليات ، ويقال إن نساء هاله الساقطات يحصلن على إذن يسمح لأى فرد بالذهاب إليهن وقضاء الليل معهن ، ويمكن لمن يرتاد هذه الناحية أن يحضر أى امرأة يختارها ويضاجعها على ألا يحاول رؤيتها أو التعرف على هويتها وإلا كان الموت نصيبه ، ولا يبالى القوم باستحمام النساء والرجال معا ، وينظرون إلى ذلك نظرة شريفة أشبه ما تكون بنظرتنا إلى ذهابهم معا إلى الكنيسة ، وليس من شك فى أن للثروة اعتبارها وللكاليات سيادتها ، ومن ثم فليس فيها مكان للفقير الذى لا يستطيع الإقامة بها ، أما من توفّر لديه المال وشاء صرفه فسيجد فى هذه المدينة وحدها كل ما أنتجه العالم ، فلقد رأيت بها فاكهة البرتقال والليمون الواردين من قشتالة حتى لتحسبهما كأنما قد قطفنا للحظتها من على الأغصان ، وشاهدت بها الفواكه والنبيذ الواردين من اليونان بالكثرة التى تتوافران بها فى ذلك القطر ، كما شاهدت الحلوى والتوابل من الإسكندرية وجميع بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط حتى ليخيل للجزء أنه بثلثك البلاد ، ورأيت الفراء الوارد من البحر الأسود ، كذلك كانت هنا إبطاليا بكل ما لديها من المنسوجات والحريز والأسلحة وشتى أنواع الصناعات القائمة بها ، والواقع أنه ليس ثم بلد فى العالم

لا توجد منبجاته في بروجس ، ومع ذلك كله فقد كانت مجاعة كبرى في السنة
التي زرتها خلالها .

* * *

رحلت بمدنذ لمشاهدة « سلويز »^(١٥٥) — ميناء بروجس البحري —
وأقت مع ربان الباخرة ، وحدث أن كنت ذات يوم في الكنيسة أسمع
القداس حين اقتربت منى امرأة وقالت إن لديها أمراً يهمنى وتريد الإفضاء به
إلى على انفراد ، ثم سارت بي إلى دارها المجاورة للكنيسة ، وقدمت لى
فتاتين صغيرتين وسألتنى أيهما ترضينى ، فاستبدت بي الدهشة من ذلك
وسألتهن كيف سولت لهما نفسها أن تسلك هذا المسلك معى ، فأنبأتنى أنها
تكاد تموت جوعاً وقد مضت عليها عدة أيام لم تجد ما تقنات به سوى قليل
من السمك الصغير ، كما أن الفتاتين أوشكتنا على الموت جوعاً وأنهما
عذرأوتان ، فأخذت من ثلاثهن عهداً ألا يحاولن ثانية هذه المحاولة مع أحداً ما ،
وذكرت لهن أن السنة الجديدة ستكون أحسن طالماً وتجنّب معها الخير ،
وأن ما سأعطيه لهن سوف يكفى لإعالتهن ، ثم ناوت المرأة ستة دوكات
بنديقية وغادرتهن .

ولقد كانت المجاعة أسوأ مجاعة عُرِفَت حتى ذلك الوقت ، ثم جاء في
أعقابها طاعون جامع خرب كثيراً من النواحي .

* * *

بقيت مع الربان هناك مدة يومين شاهدت خلالها المكان الذى
تبلغ بيوته أكثر من خمسة عشر ألفاً ، وهو مكان شديد المفاعاة بفضل
السور القوى المحيط به والخنديق المملوء بالمياه ، كما يزدحم بالأجانب

وبضائهم حتى لتضيق البيوت على كثرتها عن إيوائهم جميعاً . ولقد قابلت هنا كثيراً من القشتاليين وغيرهم من الجنسيات الأخرى التي أعرفها . ويقال إنه من العسير جداً دخول ميناء هذه المدينة من جراء الشواطئ الرملية ، لكن لا تكاد تنجح السفينة في اجتيازها حتى تصبح في غاية الأمان ، أما حين ينعسر الماء فتبقى راسية على الرمال الناعمة العميقة كأنما هي في بحر من الماء .

ويبدو المرفاً لفاظه كما لو أن نصف العالم قد حمل سلاحه لمهاجمة المدينة حيث يوجد بها أسطول ضخم من السفن من شتى الأنواع قد ألفت مراسيمها في هذه الناحية ، فمنها النازحات والفرقاطات من ألمانيا ، والشوانى من إيطاليا ، والطرادات والسفن ذات الأبراج وسواها من ضروب المراكب الأخرى من مختلف الأقطار ، وإذا كان بين بعض أصحابها والبعض الآخر عداوات فلا مجال لإظهارها هنا برأ أو بحرا ، إذ يسير كل فرد في سبيله ولا يعبأ بغير عمله ، أما إذا نهج أحدهم نهجاً يخالف هذه القاعدة أنزلوا به أشد أنواع العقاب ، ويمكن للمرء أن يرى في هذا المكان رجالاً من جميع الشعوب وقد جلسوا إلى مائدة واحدة يتناولون طعامهم دون خصام أو عداوة . ولقد بقيت في « سلويز » مدة يومين في صحبة الربان عدت بعدها إلى بروجس .

أخذت طريقى بعدئذ عبر « بينكاردى » إلى مدينة اسمها « أراس » ، وهي تابعة لدوق برجنديا ، وتتماز بروعة مظهرها ، كما أنها مقرطة الأراء لاسيما بفضل منسوجاتها وسجادها المختلف الأنواع ؛ ورغم صنع هذه في أماكن أخرى غيرها إلا أنه لا جدال في أن ما يُصنع منها في « أراس » يفضلها جميعاً .

ولقد جرت هنا مفاوضات الصلح بين ملك فرنسا ودوق برجنديا ، وبقيت
 بها ثلاثة أيام واعتزمت المضي منها إلى إقليم « نرمنديا » لمشاهدة « روان »
 ثم إلى باريس ، بيد أن وطأة الطاعون بلغت من الشدة حدا أرغمتني على
 طريقى والعودة إلى « بروجس » في فلاندرز ، وكان لى مبلغ من المال
 بعض صيارقتها فضيت إليهم للمطالبة به ، اسكننى وجدت جميع التجار
 غادروها إلى « أنتورب » حيث كان السوق منعقداً ، فبقيت في « بروجس »
 يوماً واحدا رحلت بعده ، ثم قدر لى بعد يومين أن أبلغ « غنت » الواقعة هي
 الأخرى في كونية فلاندرز .

و « غنت » واحدة من أكبر مدن العالم المسيحية ، وهى محصنة أعظم
 التحصين من كل ناحية رغم وقوعها في منطقة سهلية ، وذلك لإحاطتها بسور
 قوية ووفرة الخنادق التى يستحيل معها مهاجمتها إلا من مسافة قاصية ، هذا
 بالإضافة إلى كثرة الأسلحة والمدافع بها ، ويقولون إن القانون يحرم على كل فرد
 من سكانها حمل سلاحه ورجحه ، وأنه يمكن تعبئة ستمين ألفاً من المشاة
 للقتال ، وسواء أكان هذا الخبر صادقاً أم موضوعاً فالثابت أن بها من المثونة
 ما يكفيها ست سنوات ، وهى تتجدد كل عام ؛ وحين كنت مها كان أهلها
 في قتال ضد حاكمهم الدوق^(١٥٦) الذى زحف عليهم وحاصر المدينة التى ظلت
 تقاومه فترة غير قصيرة من الوقت ، ولكنه نجح فى الاستيلاء عليها أخيراً ،
 وانتقم منها أشد انتقام ، حتى إن الأهالى راخوا يفدون إليه — كما قيل —
 عراباً إلا من فضلة قميص يسألونه العفو عنهم ، كما أذعنوا الأمور كثيرة إظهاراً
 منهم لخضوعهم له ، وحينذاك فسب رحل عنها ؛ غير أن هذا الاستيلاء كلف الدوق
 جهداً طائلاً ، فقد فقد بضاعته وهلك فيه أحد أبنائه ، كذلك هلك هنا أيضا

الأخ « جاك دي لابن » الذي حارب من قبل في قشتالة ، وكان مصرعه من جرح أصابه من شظية مدفع .

ومدينة « غنت » كبيرة جداً أهلة بالسكان عظيمة الثروة بفضل تجارتها ، وذلك لوصول مياه البحر إلى أسوارها مما يساعد كثيراً من السفن على دخولها ، ويمكن القول أكثر من هذا فما يتعلق بها لكتنى لا أميل للإفاضة كثيراً عنها وتكاف المشقة بالكتابة الطويلة .

سافرت من غنت وقدمت إلى « أنتوب » الواقعة في « برابانت » والقائمة لدوق برجنديا ، وهي مدينة كبيرة بها ما يقرب من ستة آلاف مسكن ، ولها سور رائع وحصن وخنق ، وشوارعها ودورها جميلة جداً ، وبها ميناء رائع ، كما تدخل السفن المدينة عبر أحد الجداول ، مما يستطاع معه ربط الزوارق إلى أسوار المدينة ، كما أن السوق ^(١٥٧) الذي يعقد هنا هو أعظم أسواق العالم طراً ، وعلى من شاء أن يرى المسيحية كلها أو الجانب الأكبر منها مجتمعاً في مكان واحد فهو مستطيع ذلك هنا .

ويحضر دوق برجنديا على الدوام إلى السوق الذي يرجع إليه الفضل فيما يتحلى به بلاطه من بهاء وروعة ، إذ يفد عليه أقوام من شعوب جهة متباينة كالألمان المجاورين له والإنجليز ، كما يفشاه الفرنسيون في جموع كثيفة يشترون منه ويبيعون فيه السلع الكثيرة ، أما المجرىون والبروسيون فيملأون السوق بخيولهم ، كذلك يطالع المرء هنا وفود الإيطاليين ، ولقد رأيت بنفسى سفن وشوانى البندقية وفلورنسا وجنوه ، أما الإسبان فهم أكثر ، بل لعلهم أكثر في « أنتورب » منهم في أى مكان آخر ، ولقد قابلت تجاراً من « بيرجوس »

من المستقرين في « بروجس » كما صادفت في المدينة أيضاً « جوان دي موريللو »
أحد خدم ملكنا .

وليس أنتورب — كسوق تجارى — ندى ولا ضريب ، حيث يتجمع بها
كل الثروات ووسائل التسلية ، ويقسم نظام المرور فيها بالروعة ، وتباع الصور
من شتى الأصناف في دير القديس فرنسيس ، وأقمشة «أراس» في كنيسة القديس
يوحنا ، ويقوم أحد أديرة الدومنيكان بالتعامل في جميع أنواع المصنوعات
الذهبية ، ومن ثم فإن السلع المختلفة موزعة بين الأديرة والكنائس ، ويباع
البعض منها في الشوارع ؛ ويوجد خارج المدينة عند إحدى بواباتها شارع كبير
يبيع القوم فيها خيول الجرّ وحياد السباق وغيرها من أنواع الأحصنة ، وهذا
منظر فاتن ؛ والواقع أنه ليس ثم شيء يشتاقه الإنسان دون أن يراه هنا بوفرة
عظيمة ، ولست أعرف كيف أصف سوقاً هائلاً مثل هذا السوق ، فلقد رأيت
السكثير غيره في «جنيف» بسافوى ، وفي فرانكفورت بألمانيا ، وفي «مدينا»
بقشتالة ، لكنها كلها مجتمعة لا تقاس بسوق أنتورب .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

لوفان . بوالى ديك . فرانكفورت . كولونيا . ميتر
أسر الرحالة وإطلاقهم . طيفور يفقد سيفه .
بازيل . مبارزة فى شافهاوزن .
كسبار . نومبورج . براج .
حاكم ميلسين

...

سافرت من « أنتورب » وجئت إلى مدينة « لوفان » الواقعة فى « برابانت » وهى مدينة كبيرة جداً سكنها غير أهلة بالسكان بصورة ظاهرة ، وتوجد بها جامعة لدراسة جميع العلوم وإن قالوا إن دراسة اللاهوت تحظى بنصيب أوفر مما تحظى به سواها من الدراسات الأخرى ، ورأيت بها ابنين غير شرعيين من أبناء دوق برجنديا يدرسان فيها الفلسفة ، وقد أصبح أحدهما فيما بعد فارساً حربياً صنديداً ثم لقي مصرعه كما ذكرت آنفاً - فى حصار غنت .

غادرت « لوفان » وجئت إلى « بوا - لى - ديك » التى كنت بها من قبل ، ثم سافرت منها إلى « نيميجين » التابعة - كما قلت من قبل - لدوقية « جيلدرز » ، ثم بارحتها إلى دوقية « كليفس » وبلغت مدينة فرانكفورت وقت انعقاد السوق الكبير وإن لم يقف على قدم المساواة مع سوق أنتورب ، على أن للمدينة مكتظة بكل أنواع المثونة ، وبها أربعة آلاف نسمة ، ويرجع الفضل إلى هذا السوق فيما تنعم به المدينة من الثروة ، وهى واقعة فى وسط

ألمانيا ، كما أنها في نظري أروع ما تكون لما بها من الحيوانات ، وقد مكثت
بها ثلاثة أيام انكفأت بعدها عائداً إلى كولونيا فزرت رئيس أساقفتها وفاءً
بوعدي له ، فلتعيني أكرم لقاء .

والتقيت في كولونيا بسفارة كانت عائدة من بازيل إلى دوق برجنديا ، كما
صادفتُ ثلثة طيبة من الرجال أرسلها « المجلس » إلى الدوق رجاء حمله على
مساندة الجمع والوقوف إلى جانبه وصرفه عن ولائه للبابا وتأييده إياه ، وكان
في السفارة ثلاثة من رجال الدين : أحدهم أسقف « فيزو » بالبرتغال ، وثنائهم
ألماني الجنس ، أما ثالثهم فهو « لدفيجو » أعظم أدباء عصره وحامل دواة
البابا ، وقد حدث أثناء تعرّفي بأسقف « فيزو » الذي قابلته في جزيرة
« خيوس »^(١٥٨) باليونان - حيث كان ذاهباً لمقابلة إمبراطور القسطنطينية -
أن اضطرت للعودة في صحبته حتى بازل ، فلما جئنا إلى « مينز » بعث السفراء
في الحال إلى « ستيفن » دوق بافاريا^(١٥٩) يطلبون منه عهد أمان في الطريق ،
ذلك لأن الدوق كان معلماً لابن أخيه دوق « لدويج » وكان سيد تلك
الجهة كلها ، والسبب في ذلك أن الدوق كان من مؤيدي البابا « يوجين » ،
فبادر بإرسال كتاب الأمان في الوقت المناسب ، ورحلنا عن مينز ، لكن
ما كدنا نبعدها بثلاثة فراسخ حتى هاجمنا مائتاخيال أسروا السفراء وكنت
من بين الأسرى ، وحملونا إلى حصن بأحد الجبال اسمه حصن « ليفانتين »
الذي عرف فيما بعد باسم « لوبنهايم » ، وكان هذا عملاً فاحش السوء ، بالغا
المنتهى في قلة الذوق وإن لم يمسنى أحد منهم بضرٍ إذ راووني فارساً ، ولكنهم
بعثوا في طلب فارس أخذ مني سبني ومهمازى ثم أبقونا في ريقة الأسر
خمسة عشر يوماً لكن لم يكن هناك خوف من قلة الطعام ، إذ كانوا يحمولونا

بالليل وعند انبلاج النهار وكذلك طول ساعات اليوم على الأكل والشرب مع حرّاسنا جرياً على مألوف عاداتهم مما لم يكن لها مثيل عندنا ، مما أدى إلى مرضنا واشتداد العلة بنا ، فأرسلت في الحال الدوق « ستيفن » أخبره عن أكون ، وعن طريق مجيء وطلبت إليه إطلاق سراحى ، فاستجاب لى بإرساله أحد أبناء جلده ليخلصنى من الأسر ، فلما رُدت إلى حربى رغبت فى رؤية رفاق ومحادثهم ، لكن القوم رفضوا طلبى هذا لأنهم كانوا قد أبقوا كلامنا على انفراد عن الآخرين .

لم أكد أخرج من سجن القلعة حتى ركبتُ مع جماعتي وذهبتُ إلى دوق « ستيفن » الذى كان مقيماً فى بلدةٍ تبعد عن هناك فرسجاً واحداً ، وحادثة طالباً إليه إطلاق سراح رفقى ، وأخبرته أنه إذا لم يطلقهم فى الحال فلن يقف الأمر عند حد ضياع بضائعه بل وأيضاً أملاك ابن أخيه التى كانت فى حوزته .

وبينما كنت موجوداً هناك جاءت الأخبار بثورة شعب ابن أخيه ضد الدوق قائلين إن الدوق دس شرف ابن أخيه : وأنه نكث عهد الأمان الذى منحه ، وحينئذ سألنى الدوق أن أعود إلى السفراء فى محاولةٍ منه للصلح بينه وبينهم ، قائلاً إنه شديد الرغبة فى إطلاق سراحهم على ألا يرفعوا شكواهم إلى المجلس أو إلى الإمبراطور ، كذلك بعث إلى الرسل الذين وفدوا عليه مفضياً إليهم بإطلاقه قيد السفراء ورعايته إياهم كل الرعاية ، فرحلت حينئذ مع أحد أقاربه وعدت إلى المكان المسجون به السفراء وأفضيت إليهم بحماسة الخبير ، فسروا سروراً عظيماً بما فعلته ، وسرعان ما استجابوا إلى الشروط التى طلبها الدوق فأطلق سراحهم واستردوا جميع ما أخذ منهم ولم يهتدوا شيئاً ما ، لكن الذى

أذهلنى هو أن القوم تفقدوا سيفى الذى كانوا قد سلبونى إياه فلم يقفوا له على أثر ، فقدّموا لى بديلا عنه واحداً من سيوف الدوق ، بيد أنى رفضته ازدراءً به ، مقسماً اليمين ألاّ أحمل غير سيفى ، وأن لا بد أن يدفع بلد الدوق الثمن غالباً للإهانة التى لحقتنى رغم كتاب عهده بالأمان .

حينفذاك رحلنا أنا والسفراء عبر أراضى دوق « لدويج » ، حيث لقينا من الأهالى غاية الاحترام ، وأبو أن نتحمل دفع ثمن شىء ما ، لكن بينما كنا على وشك مفادرة أملاكه جاءنى سيد من رجالات الدوق على صهوة جواده ملتمساً منى أن أنسى غضبى لأن الأمر لم يكن موجهاً ضدى بل ضد السفراء ، ثم جاءونى بسيفى وأخبرونى أن الدوق تكلف فى العثور عليه مشقة أعظم من مشقته فيما لو كان يحارب لاحتلال إحدى المدن ، وعلى هذا غادرنا أرض هذين السيدين : العم وابن أخيه ، وعدنا إلى « ستراسبورج » ، وتابعنا سقرتنا آخذين معنا من كل مدينة حرساً مسلحاً لحمايتنا نظراً للأحزاب المتنازعة ، وللخصومات التى بين البابا والمجلس ، وانكفأنا إلى « بازيل » حيث وجدنا للمرة الثانية سفراء من لدن مولانا الملك ، وهم الذين رأيتهم من قبل .

• • •

ولما رحلت من بازل فى الوقت المحدد وصلت إلى مدينة يسمونها « شافهوزن » تقع على الراين الأعلى ، ورغم صغرها إلا أنها جميلة وبالغة النظافة ، وكانت بها إذذاك مبارزة عظيمة رتبها الأسراء على الصورة التالية : هى أن يجتمع جماعة معينة من الفرسان ويدونون فى قائمة أسماء جميع نبلاء تلك الناحية ، مع تكليف أحد الرسامين بنقش رنك كل واحد منهم وهو يحمل من دار لأخرى ومعه الدرع ، ويعلنون يوماً معيناً من الأيام ينبغى على كل

شريف الحضور فيه بنفسه إلى المكان المتفق، عليه وهو في كامل سلاحه وبخيو له
 ليساهم في المبارزة ، كذلك يذيعون هذا الخبر على كل كبار سيدات تلك
 النواحي ، وبعدئذ يجتمع النبلاء والسيدات ، فإذا تكامل عقدهم جميعاً انتحى
 كبارهم في السن ناحية مع بعض للتقدمات في العمر وراحوا يتشاورون فيما
 بينهم ، ويستفسرون عما إذا كان أحد النبلاء قد ارتكب خطأ أو سلك
 مسلكاً غير لائق ، وهل هناك ثم واحد منهم قد اغتصب سيدة أو آنة أو
 أساء السيرة معها ، أو سلب حقاً لضعيف أو لشخص لا حامي له ، أو حقر
 نفسه طمعاً في مال فتزوج امرأة من طبقة أدنى من طبقته ، أو ارتكب عملاً
 ينزل من مكانته ، وبذلك يستعرضون أخطاء كل واحد ، فإن وجدوا من
 يدينونه استدعوا إليهم جماعة معينة من الفرسان الذين وردت أسماؤهم
 في القائمة وكلفوهم بالهجوم على المذنب وضربه بالعصى وسوقه أمامهم ، فإذا تم
 ذلك تقدم الفرسان المستون والسيدات من المذنب وأخبروه عن علة ضربه ،
 ثم ساروا به وأذنوا له بعدئذ بأخذ مكانه مع بقية الأشراف في الحلقة كما لو
 كان قد تطهر من ذنبه وكفر عن جرمه ، أما إذا رفض المذنب الحضور حكموا
 عليه حكماً ضاعفوا له به العقاب ، فإن أصرّ على عناده في المرة الثالثة أخرجوه
 من طبقة الأشراف .

* * *

وفي كل هذه النواحي يستطيع الجميع المبارزة والاشتراك في رياضات
 الفرسان ، أما النبلاء ذوو الأحساب العريقة المعروفة فهم وحدهم الذين يساهمون
 في هذه المبارزة ، وتلك عادة طيبة جديرة بالتقدير لأنها تجعل الناس يعرفون
 من يحق له أن يكون فارساً ذا أصل عريق ، ومن أذنبوا بارتكابهم أفعال

السوء التي تجلّهم بالعار ، ولقد أمرت أن أشترك مع النبلاء الآخرين وأشهد ملاهيم .

بقيت في «شافهوزن» يومين ثم سافرت قاصداً «كونستانس» التي كان قد عقد بها مجمع ديني^(١٦٠) للقضاء على الخلافات الموجودة في الكنيسة ، وحضره السفيران القشتاليان «فرنند بيريز دي أيبلا» و «دي لوس دونسيوس» ، وهنا لقيت كرينال «سان ندرو» الذي كان بها ، وأقت معه ثمانية أيام ممتعة ، نعمت خلالها برؤية المدينة الجميلة الجديرة بالمشاهدة لما اشتملت عليه من المنازل والشوارع والكنائس والأديرة والخانات الرائعة والنزل ، ولا بد أنها كانت على الدوام بلداً طيباً ، ثم ازدادت طيباً منذ أن عقد بها «المجلس» .

وتوجد بها بحيرة عذبة تصل مياهها إلى الأسوار ، وهي تابعة من جبال الألب ، ويبلغ طولها خمسة أو ستة فراسخ ومثلها عرضاً ، وهي شديدة العمق وتستطيع كثير من السفن الإبحار فيها ، وتكثر بها الأممك التي يقال إن لحمها من أشهى لحوم حيوان البحر مذاقاً ، كما يقنأر فيها عدد من الجزر الصغيرة حيث توجد الصوامع إلى جانب الأديرة ، وتأتي كميات ضخمة من الثونة عبر هذه البحيرة التي يرجع الفضل إليها في رخاء المدينة ، ولقد شاهدت بها أجمل امرأة قد رلى أن تستحل عيني برؤيتها ، وبلغ جمالها حدّاً خالجنى معه الشك في آدميتها ، ولو تسنى لها من الطيبة مثلما تسنى لها من الفتنة لكانت حور الجنة مثلها .

ولقد عقد المجمع الديني جلساته هنا في الكنيسة الكبرى ؛ وحدث أن مات في ذلك الوقت «فرناندو» ملك أراجون ، وأقيمت في هذه الكاتدرائية المآتم الكبرى الثلاثة بمكانته ، وزينت الكنيسة كلها بصور أسلحة أراجون .

استأذنت الكردينال في السفر ورحلت لمشاهدة الإمبراطور الذي كان مقبلاً إذ ذاك في بوهيميا، واتخذت طريقاً عبر ألمانيا العليا حتى جئت إلى «أولم» التي تسمى «أولوس»، والتي تصنع بها المنسوجات القطنية المنسوبة إليها، وهي طيبة الموقع بديعة البناء، كما أنها إحدى المدن الإمبراطورية التي تشير إلى حق الإمبراطور في القضاء وتناول الدخول وما سواهما. وعلى بعد نصف فرسخ منها يجري الدانوب الذي يصب في البحر الأسود.

واقعد غادرت «أولم» إلى مدينة «نوردن لنجن» التي كانت حينذاك في صراع ضد أحد لوردات تلك الناحية، وزودني القوم بحرسٍ سار معي عبر هذا الإقليم الخطر، ووصلت بعدئذ إلى مدينة «تورمبرج»، فلقيت أناساً كثيرين منهم سفراء البابا وكردينال «سان كروزو»، كما صادفتُ جمعاً غفيراً من القسس من بينهم كردينال «سان سستو» الحالى المسمى بالأخ «جواندى توركيادا»^(١٦١).

وكان من أنصار الجمع ومؤيديه كاردينال «أريس» وكثيرون غيره من القساوسة، منهم المعلم «جواندى سيجوفيا» أستاذ اللاهوت؛ أما من جانب الإمبراطور فهناك «كاسبر شليك»^(١٦٢) نائب المستشار، وكثير من الأسماء وأهل العلم، وقد اضطررت للإقامة هناك حتى أنهى مجلس «الديت» اجتماعاته واستعد القوم للرحيل للسفر مع «كاسبر شليك» الذي كان في طريقه لمقابلة الإمبراطور في بوهيميا، ولولا ذلك لما كان في استطاعتي السفر دون توقع خطر الهلاك، ولقد زكأن لديه القشتاليون الذين كانوا هناك، فرضى أن أكون في معته حيث قدم معي ابن أحد الكونتات واسمه «باتندورف»، وكنت قد تعرّفت عليه في قشتالة أثناء الحروب ضد المسلمين.

على حدود « جيان » ، وهو الذى دُشِنَ فارساً فى « كامبل » ثم هرب إلى إسبانيا من أبيه حين أراد أن يجعل منه أسقفاً ، وكان له أخ أكبر منه ، غير أنه حين عودته إلى ألمانيا وجد أن أباه وأخاه قد ماتا فورث عنهما أملا كهما التى يبلغ إيجارها عشرين ألفاً من الدوكات ، ولقد لقيت من هذا الفارس عطقاً كبيراً مثل الذى لقيته من حاشية الإمبراطور .

أما مدينة « نورمبرج » فواحدة من أكبر مدن ألمانيا وأوفرها ثروة ، وهى قديمة جداً ويسكاد تعداد سكانها يبلغ تعداد سكان طليطلة التى تدانها فى الحجم وتشبهها فى الموقع ، ويوجد بها كثير من أهل الحرف لا سيما المعدّون ، وهم يصنعون الملابس الحديدية التى تسمى باسمها ، كما توجد بها كنيسة وضع الإمبراطور شارلمان بها الآثار المقدسة التى جاء بها من الأرض المقدسة حينما أخذ بيت المقدس ، ولقد ذهبتُ مع الكردينال لمشاهدة هذه الخلفات وأطلعونى على الكثير منها ، ومن بينها حربة من الصلب تبلغ قدر متر فى الطول ، وذكروا لنا أنها نفس الحربة التى طعن بها السيد المسيح فى جنبه ، لكننى ذكرت لهم أننى رأيت الحربة الحقيقية فى القسطنطينية ؛ وأعتقد أنه لولا وجودى فى رفقة جماعة من كبار الرجال لكنت فى خطر من الألمان لما قلته .

وهذه المدينة بالغة الثراء رغم وقوعها فى الداخل ، فهى ملامى بشت ضروب البضائع . وحين فرغ السفراء من أعمالهم آب كل منهم إلى وطنه ، ومضيت مع الألمان إلى تخوم بوهيميا حتى بلدة اسمها « أجير » وهى التى خلع فيها الإمبراطور سجدته على « كاسبار شليك » جميع الوظائف الكبرى وكانت بها زوجته أيضاً ، ولقد أقننا فى تلك البلدة ستة أيام احتفى فى أثنائها

بزواج إحدى أخواته ، وكان بها كثيرون من ألمانيا وبوهيميا ، كما أقيم بها
عديد من المبارزات والاحتفالات الكبرى .

غادرنا نورمبرج وأخذنا طريقنا عبر بوهيميا حتى بلغنا مدينة « براج » ،
لكننا لم نستطع مقابلة الإمبراطور الذي كان قد سافر إلى « سيليزيا » على
حدود بولندا ، حيث كان يشن الحرب على الملك البولندي .

وبراج مدينة موزلة في القدم إلى جانب روعتها وثرائها ، رغم أنها
تأخذت في التدهور منذ أن أصبح البوهيميون هرطقة ، ويبدو لي أنه لم
يُقض القضاء التام على الهرطقة ولم تستؤصل شأفتها نظراً لوجود الجبال والمواقع
الهامة التابعة « للتابورين » ولقيام قلعة يسمونها قلعة « تابور » ، ولا يزال
الأهالي سادريين في غلوائهم وأخطائهم ، كما أن الجانب الأعظم من أهل
المملكة يقفون إلى جانبهم لاسيما النساء نظراً لوجود مجتمع نسوي ، وإن
كنت أعتقد أن ذلك إرضاء لشهواتهن الجنسية الدنيئة ، وهو أمر
سمعتُه أيضاً .

وتنقسم براج إلى قسمين يسمى أحدهما براج القديمة والآخر براج
الجديدة^(١٦٤) ، ويجرى بين الاثنين نهر كبير عليه جسر يصل بينهما ، وبها
جامعة ذائعة الصيت لما يدرس فيها من جميع العلوم لاسيما اللاهوت ، وقد بقينا
في براج يومين وغادرنا عبر بوهيميا حتى بلغنا أقصى حدودها ، ويقوم بين
ألمانيا وبوهيميا سلسلة من الجبال الكثيفة الأشجار أشبه ما تكون بالجدار ،
ولا يستطيع المرء عبورها راكباً أو راجلاً إلا من مسالك خاصة .

وإذ غادرنا بوهيميا دخلنا ألمانيا وبلغنا مدينة تابعة لأمير « ميسين »
دوق سكسونيا^(١٦٥) الذي تزوج بأخت الإمبراطور فردريك ، وكان قد مضى

إذ ذالك قرابة أسبوعين منذ أن شرع في محاربة الهرطقة البوهيميين وأنزل بهم
الهرزيمة واستولى على غنائم كبيرة منهم ، وأسر منهم ألف شخص من بينهم مائة
من النبلاء ، وقد استقبلني هذا الدوق استقبالا كريما وحباني بكثير من
الرعاية ، وقد أقام معي بها « كاسبار شليك » ثلاثة أيام ؛ ثم رحلنا بهـ.ئذ
عبر ألمانيا وشاهدنا كثيرا من الأماكن والكنائس التي آلت إلى أطلال
خربة دمرها ملك بولندة إبان محاربة الإمبراطور للبوهيميين ، ومن ثم كان
لا بد له من وقف حركاته العدائية والزحف مباشرة ضد البولنديين .

الفصل السادس والعشرون

برسلاف . الامبراطور ألبرت الثاني . الحياة

في البلاط . ملك بولندة . برسلاف

في الشتاء .

...

بلغنا « برسلاف » قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام ، وهي واقعة في إقليم سيليزيا وتطل على أقصى تخوم ألمانيا ، ووجدنا بها الإمبراطور « ألبرت »^(١٦٦) وفي صحبته كثير من الأدواق والمكونقات وغيرهم من أعيان الرجال ، وكذلك القساوسة من ألمانيا والمجر وبوهيميا ، كما أرسل الأخ الأعظم رئيس الفرسان البروسيين فارساً من هؤلاء مع طائفة كبيرة من الجند ، وإلى جانب هذا كله صحب الإمبراطورَ عسكريه كثيف لأنه كان في الحرب ، وكان في حاجة إليهم لاشتباهه إذ ذاك في قتال ضد عدو ضخم العدد . بالغ الشجاعة ، بيد أنني علمت أن القتال لم يحل دون إقامة الاحتفالات أو المبارزات أو البرجاس أو حفلات العرس التي أعدها الإمبراطور لشعبه ، مما لم تعرقل استمرار القتال ، بل أعدت لكل أمر عدته ، وكان تتويج الإمبراطور قد تم منذ أمد قريب جداً وشهدته جموع غفيرة من الناس ، فيهم السفراء الذين أتوا قدم الملوك والأمراء والجمهوريات الإيطالية ، كما حضره أسقف « بيرجوس » بأمر من ملكنا ومولانا « دون جوان » الذي أبدى الإمبراطور نحوه أعظم الاحترام ، والواقع أنه كان أهلاً لذلك ، فإلى جانب كونه ممثلاً للملك فإنه كان

رجلا نبيلاً حصيفاً جليل المنزلة مبجل القدر ، كما كان هناك ممثلون لدوق
برجنديا ودوق ميلان والبنديقية وفلورنسا وجنوه ، وممثلون للبابا يوجين وملك
أراجون ، وجاء الكثيرون منهم بالهدايا لاسيما البنادقة والفلورنسيين ، وكانت
هدايا البنديقية - على وجه الخصوص - أعظمها وأجلها .

ولقد تقبل الإمبراطور جميع الهدايا قبولا حسناً إلا هدايا البنديقية فقد
رفضها قائلاً إنه لا يليق به أن يقبل شيئاً من شعب يعتمز قتاله ، وزاد على
ذلك قوله في حضرة الجميع أنه قد أقسم يمينا لا رجعة فيه ألا يقبل التاج
الإمبراطوري وألا يأخذ دخوله حتى يرد البنادقة إلى الإمبراطورية ما سلبوه
منها^(١٦٧) ، وأنه سوف يتوج في القبر المقدس حين يتم له استعادته إياه ، فعمت
الفرحة الشديدة جميع من سمعوا هذا اليمين ، غير البنادقة الذين رحلوا ساعة
سماعهم إياه .

•••

ولقد قدمت للإمبراطور - هذا اليوم - احتراماتي وأنا في جماعة من
القشتاليين والألمان وفي صحبة نبيلين سبق أن قابلتهما في بيت المقدس ، وفارس
« باتندورف » الذي رافقته في الرحلة من قبل ، ولقيني الإمبراطور أحسن
لقاء وأحاطني بمظاهر التشريف ، واحتفل في هذا اليوم بزواج كونتة أرملة
من أحد فرسان البلاط ، وتبارز مع مركز « براند مبرج » . وفي إحدى
جولات هذه المبارزة لم يكن معتلياً صهوة فرسه إلا أنه برشاقة امتطاه ، وألقى
بجودته جانباً ووضع على رأسه قبعة محلاة بمشبك غالي الثمن ، ثم اقترب من
العروس مقدماً إليها القبعة والمشبك ، ثم أخذها من يدها وسار بها إلى القصر
وحوله كوكبة من النبلاء وكبار الرجال ، ومضى الجميع يتناولون العشاء حين

حل المساء ، جلست السيدات وحدهن على انفراد ، أما العروس فقد اتخذت مجلسها بين السادة الأشراف ، أما مائدة الإمبراطور فلم يجلس إليها سوى ثلاثة هم : الإمبراطور نفسه وفارس بروسيا وأنا ، واستمرت الوليمة حتى بعد منتصف الليل بساعة ، ثم بدأ الرقص الذى استمر حتى الفجر . كان الإمبراطور رجلاً ذا نزعة طيبة ، كريم النفس ، ظريف الشخصية ، سمح الوجه رغم أنه كان ذا هيئة غير مألوفة ، فقد كان لونه أميل للسمر الشديدة حتى إن الألمان كانوا يمزحون فيقولون إن الدم القشتالى يجرى فى عروقه .

ولقد أخذنى من يدى وأصرنى بإلقاء نظرة على السيدات حتى انتقى منهن من أوتر الرقص معها ، وحمل أمامى المصباح صرتين أو ثلاثاً ، وهكذا أمضينا تلك الليلة ، ورأيت فيها كثيراً من الأشراف الذين كانوا يتحلون بالشارة التى تسلمتها من مولاي الملك والذين رافقوني فى الانصراف بعد استئذانى الإمبراطور . فلما كان اليوم التالى — وقد فرغ القداس — استدعى الإمبراطور إلى حضرته جميع السفراء الذين وفدوا عليه وجلس على عرشه المرتفع ، كما طلب أسقف «بيرجوس» وسأله أن ينوب عنه فى الرد على جميع السفراء ، وقد فعل الإمبراطور ذلك تكريماً للأسقف ، فلما انتهى الأمر اقتربت منه وأعطانى رنكه وكذلك وسام طائفة «التنين» التى تعادل مكانتها فى الجرج مكانة «وسام النسر» فى النمسا ووسام «وتوسينو» فى بوهيميا .

وبينا دأب الإمبراطور على إقامة الاحتفالات كل يوم — كما قلت —

فإنه لم يهمل قط أمر الحرب التي كان يستعد لها على الدوام ، وكان السبب الرئيسي لهذه الحرب هو الإمبراطورة^(١٦٨) أرملة سيجسموند وحماة الإمبراطور الخالي ألبرت ، وهي — كما يقول الناس — امرأة منحلة الأخلاق غاية الانحلال ، فلما اتخذ زوج ابنتها الإجراءات ضدها غادرت بلاده وهربت إلى ملك بولندا حاملة معها ثروة ضخمة أعطتها إياه ، كما تنازلت له عن جميع حقوقها في أراضيها الألمانية ثم تزوجته ، إلا أن هذا الزواج كان باطلاً كل البطلان حيث إنها كانت قد تجاوزت الخامسة والستين من عمرها على حين لم يتخط هو الثانية عشرة ، وقد مكن هذا النزاع البولنديين من النجاح في دخول ألمانيا ، غير أن أسقف «بيرجوس» الذي كان موجوداً بينهم حينئذ استطاع بفضل حصافته أن يعالج الأمور بحكمة هدهدت من حدة الطرفين وأدت إلى عقد الصلح بينهما ، وكان ذلك أمراً شديداً للصعوبة من جراء الخسائر التي سبق أن تكبدها الجانبان .

ونتيجة لذلك أتاحت لي الفرصة لرؤية ملك بولندا حيث وجدته في إحدى القرى التي تبعد مسيرة يوم وفي صحبته جماعة كبيرة من الأشراف وهم في أحسن لباس وقد تساحوا على مألوف عادة بلادهم وامتطوا صهوات جيادهم ، ويقولون إن الملك سيد إقطاعي كبير لما يملك من الأرض وما ينصب في خزائنه من الأموال ، وكان في السن التي ذكرناها آنفاً ذا طلمة بهية رابط الجأش .

كذلك رغبت في رؤية مدينة «كراكاو» وهي أهم مدن مملكته إلا أن ذلك كان مستحيلاً ، كما أنني لم أحظ برؤية صيد الدب وهي من أعظم ما يستحق المشاهدة في تلك البقاع حيث حيواناتها بالغة التوحش والعنف مفرطة الأقدام ، وتلك رياضة رائعة لا يمكن ممارستها دون وجود الكثير

من الرجال والكلاب ، كما أن لحمها شهى المذاق والطعم .

استأذنت من ملك بولندة ورجعت إلى الإمبراطور في « برسلاو » ،
وبينا كنت ذات يوم أتحدث عن تجاربي سألني عما صادفتني في ألمانيا ،
فأجبتة أن دوق « ستيفن » قد سجنني في « راينلاند » ، فاشتد غضبه
قائلا إن القشتاليين لا يستحقون مثل هذه المعاملة لمعرفة أفضال ملك
إسبانيا وشعبه على الألمان ، مضيفا إلى هذا أنه كان قد اعتزم زيارة إسبانيا
قبل زواجه

فلما كان اليوم التالي وأنا على مائدة أسقف « بيرجوس » للعشاء دخل
رسول الإمبراطور الجرى الذي كنت قد قابلته مع أمير البحر « دون
فادريك » واسمه « توزول » ، وجاء هذا الرسول بكأس قضية مذهبة
الحواشي بها ثلاثمائة فلورنتي ، بعث بها الملك إلى وقال إنه يرجو أن أغفر
له أنه لم يستطع أن يمنحني أكثر من هذا نظرا لظروف الزمان وللمكان ،
فشكرته شكرا بليغا لما وصاني به وأيبت إلا أن أعيد إليه المال ، فقد كان لدى
ما يكفي احتياجاتي ، كما أن أخذي إياه سيكون عبئا ثقيلا على كاهلي ،
كذلك قلت له إنني لو لم يكن معي المال لما اكتفيت بقبول رفته بل
لبادرت بطلبه منه إدرا كما مني لسخانة العظيم ، فلما سمع الرسول قائل هذه
خلفني ومضى ، كما أن أسقف بيرجوس فرح بجوابي فرحا شديدا وقص الخبر
فيما بعد على الملك « جوان » في حضرتي .

وقلما مر يوم في هذا البلاط دون مبارزة يشهد فيها كل جانب حرا به ،
وبعد خوضه الحديدية ودروعه ، غير أنهم جميعا كانوا معتادين على ذلك الأمر ،

مدربين عليه ، بارعين فيه بدرجة تنفي الخطر عنهم .

. . .

ومدينة برسلاو كبيرة جدا بل إنها أكبر من إشبيلية ، هذا إلى شدة ازدحامها بالسكان ، وتدخل في نطاق أسقف « سيليزيا » أعظم أساقفة هذه النواحي على الإطلاق ، وكان — إلى جانب دخوله الكبيرة — يستطيع أن يدفع إلى ميدان القتال عددا ضخما جداً من الرجال .

أما الإقليم فتديد البرودة إن هو قيس بألمانيا السفلى قياس ألمانيا إلى قشتالة ، ولا تكفي المواعد والمداخن في التدفئة ، لكن هناك نوعا من أفران الحرارة شائع الاستعمال ، إذ يوحد الناس النار تحت حجرة علوية ذات أرض مليئة بالفتحات ، ثم يضعون المقاعد فوقها ويجلسون عليها ويفتحون النقبوب فتتصاعد الحرارة بين الأرجل .

ولشدة برودة المدينة فإن الإمبراطور ورجال حاشيته يمتشقون الشوارع في عربات خشبية أشبه بالآلات درس الغلة ، وتجرها جياد ذات حدودات حديدية كما يفعلون في الريف ، تسير بهم في الشوارع ، ويمضي البعض الآخر في عربات تجرها ثمانية أو عشرة جياد ، وهي مغطاة في إحكام بالمظلات ويثبتون الجاسر فيها ، وبذلك يمضون من بيوتهم إلى القصر أو إلى أى مكان يشاءون ، ولا يركب الموسرون الجياد خوفاً من الزلق لأن شوارع المدينة أشبه بالزجاج من جراء الجليد الذى لا ينقطع تساقطه ، ويدير الكثيرون رجالا على أقدامهم ويحضر كل شخص — حتى الأطفال — إلى الكنيسة عند منتصف الليل ولا يفوت أحداً منهم حضور القداس ، ويزودون أنفسهم بكميات كبيرة من الطعام والشراب ، وهي عادة قد تبدو لنا أشد غرابة من كل عادة سواها

وأعتقد أن ما يتفق على الفراء والتوابل أكثر من نصف ما يتفقه العالم كله
عليهما، فالقوم شديد الثراء، ولديهم الفضة بوفرة كبيرة، ولما كانوا لا يمتثلون
بكثير من الخدم، وكانوا في الوقت ذاته ذوى دخل هائل وثروة ضخمة فإنهم
يميشون عيشة طيبة جداً .

. . .

والإمبراطور ألبرت رجل محمود الفضائل ، صادق في مسيحيته مخلص
لها ، يستجيب للأوامر الدينية ويتمثل هذا في أعماله للنطوية على الرحمة ،
ويرجع إليه الفضل وحده — أيام أن كان لا يزال دوقاً — في عدم دخول
البوهيميين ألمانيا إذ كانت مقاومة الإمبراطور سيجسموند قليلة لأن أصله
البوهيمى حمله على عدم الزحف عليهم .

الفصل السابع والعشرون

- مفادرة برسلاو . الرحلة إلى فينا . مهاجمة طيفور في الطريق .
- فينا . لإمبراطورة اليزابث . بودا . نويشتات .
- فردريك دوق النمسا . الألب . فيريولى .
- تريفيسو . بادوا .
- • •

سألت الإمبراطور أن يتفضل فيأذن لي بالرحيل لرغبتي في العودة إلى قشتالة بعد أن ساهم مولاي الملك بنفسه في الحرب الإسلامية ، والحس الحاضرون منه أن يعهد بي إلى رعاية اثنين من فرسانه كانا مسافرين إلى فينا في قوة قوامها مائتا فارس ، ومن ثم رحلنا من برسلاو واستطعنا الوصول بعد المشقة الكبرى والخطر المقيم إلى حدود بوهيميا ، ثم دخلنا ولاية مورافيا التابعة للإمبراطور ألبرت منذ أن خلفها عليه صهره الإمبراطور سيجسموند بعد زواجه ، فطالعنا بمورافيا كثيرا من النواحي المهجورة التي دمرها البوهيميون والتي لا تزال آثار النيران ظاهرة بها ، ومن ثم أمضينا اثني عشر يوما حتى أدركنا فينا بعد أن قاسينا الأمرين من الجليد والصقيع ، وممرنا في طريقنا على نهرين عبرناهما بعرباننا على الثلج ، وكان الجو قارس البرودة والبرد تفضفضت له أسناني حتى كادت أن تسقط من فمي ، وليس من شك في أن اجتياز مثل هذا القطر في الشتاء أمر مستفظع .

كان أحد رفيقي الفارسين يعيش في مكان تابع للإمبراطور الحالي ، أما الآخر فيقيم هو وزوجته في فينا بدار منحه إياها الإمبراطور ألبرت خارج

المدينة وتبعد عنها بمرحلتين ، فلما أصبحنا على مسافة فرسخين من فينا تركتني
الفارسان وشخص كل منهما إلى مقامه ، وقد سألتني هذا الفارس الذي يعيش
في فينا أن أمضى معه في داره خمسة أيام أو ستة ، قائلا إنه سيأتي لأخذني من
المدينة ، ثم افترقنا بعد أن دلّني على الطريق إلى فينا وأخبرني أين أقيم .

لم أكد أبعد نصف مرحلة عن الناحية التي كنت بها حتى تصدى لها جمعي
جماعة من النبلاء المشاة قاصدين سلمي مامعي ، ولكنهم لم ينجحوا في خطبهم
بفضل ما لديّ أنا وصحابي من جياذ سريعة ، فتهيأت لنا الذبابة منهم ، وبلغنا
فينا ونزلنا الخان الذي ذُكر لنا ، لكن لم أكد أجلس إلى المائدة حتى ظهرت
نفس هذه الجماعة من النبلاء الذين هاجموني فعرفت أحدهم في الحال ، وسألته
كيف يرتضون لأنفسهم أن يسكلوا هذا المسلك ، فأبأوني أنهم نبلاء قراء
وأهم يحالون على الحياة بالصومانية ليقوموا أودهم ، فأخبرتهم أنني أنا نفسي رجل
نبيل فقير ، وزيادة على ذلك فإنني غريب في أرضهم ، وأن احتياجاتي ربما
فاقت احتياجاتهم ، فراحوا يلتمسون مني العفو عنهم ، وعرضوا على أن
يرحلوا في طلب شيء من المال يستطيعون به استضافتي لكنني شكرتهم
وأجلستهم معي ووصلتهم ببعض النقود التي كان فرحهم بها عظيمًا جدًا ،
ودأبوا على ملازمة صحبتي معظم الأيام التي قضيتها في المدينة .

وتقع فينا^(١٦٦) على نهر الدانوب وهي كبيرة جدًا يبلغ حجمها حجم
قرطبة ، وبيوتها في غاية الحسن من الداخل والخارج ، وشوارعها لطيفة
وكذلك كدائسها وخاناتها ، أما كنيسة الكبري فأبرز ما فيها البرج المقبول
تماما عن برج كنيسة « ستراسبرج » ، والأراغين كبيرة جدا فإذا قنع فيها

خيل لمن بالسكنيسة أنها على وشك الانهيار ، وتحفل هذه المدينة بالصناع في شتى الحرف، وبها جامعة لدراسة العلوم .

وللإمبراطور قصر رائع جدا كانت به الإمبراطورة^(١٦٧) فزرتها تلبيةً لأمر زوجها ، وهي ابنة الإمبراطور سجسمند ، لا يقع الطرف على أجل منها طلعة ، كما أنها طويلة القامة ، وقد رزقت ابنًا صغيراً هو الآن ملك الحجر، وابنتين يتراوح عمرها بين الحادية عشرة والخامسة عشرة، فلما لقيت الإمبراطورة أفضيت إليها بخبر زوجها، وأنباتها بانعقاد السلام بينه وبين ملك بولندة ، وأن الإمبراطور يتأهب للعودة فحقق فؤادها فرحا لسماع هذا النبا ، ثم بَعَثَتْ في استقدام جماعة من أفاضل حاشيتها وأمرتهم بحسن معاملتي وإطلاعي على مشاهد المدينة وملازمتهم صحبتي ، ففعلوا ما أمرتهم به ، ثم استأذنتها بعدئذ في الرحيل فأعطتني وسام التينين الذي كانت تلبسه — رغم أن الإمبراطور قد خلع على مثل هذا الوسام — قائلةً إنه وسام أبيها ، وأنها لا تستطيع خلع سواه على .

بقيت مع هؤلاء السادة وفي المدينة أربعة أيام مؤتسلاً بصحبتهم حتى بعث إلى الفارس الذي كان رفيقي في الرحلة بسيدني لمصاحبي فرافقتهما ، وغادرت هذا المكان إلى حيث كان هذا الفارس في انتظاري ، فتلقاني بداره المساه « لكسنندورف » ، غير أنني قبل مغادرتي فينا ذهبنا لرؤية « جورج فونيروك » الذي تأخى مع « دون فرنا ندودي جيفارا » في السلاح ، وصحبني هذا الفارس مسافة الفرسخين إلى البيت حيث دعاه مضيفي للغداء معنا قبل رحيله ، وكان سمرنا في هذا اليوم عظيماً ، ثم عاد الفارس إلى فينا وبقيت مع مضيفي أربعة أيام استعدت فيها نشاطي تماماً بعدها،

وقد أكرم القوم وفادى كأننى أحدهم ، وتلقنى ربة الدار لقاء
الأم لولدها .

رأيت كافة نواحي المزرعة التى تعد من أكبر وأروع المزارع التى شاهدتها،
وهى شديدة الحصانة بفضل خندقها وسورها رغم وقوعها فى سهل ، كما يقوم
على أحد جانبيها بستان كبير يمتد مسافة فرسخ طولاً تمرح فيه الخنازير البرية
والظباء وغيرها من حيوان الصيد ، ويشق المزرعة نهر تنمو على جانبيه
الأحراش الكثيفة ، ويحتفظ الإمبراطور فى هذا المكان بصناع الأسلحة
والسيوف والأقواس والسهام والدروع وغيرها من الأشياء الرائعة التى
تستحق المشاهدة .

.

ثم وصلنى الفارس وزوجته بيمض الهدايا ، فأعطتنى هى ثوبا من التيل،
وتفضل هو على بسيف ومهماز وسرج مذهب ، ثم استأذنتهما فى الرحيل ،
وسألت هذا الفارس أن يبعث بأحد رجاله معى إلى « بودا » إحدى مدن الحجر
وتبعد عن هنا مسافة ثلاثة أيام .

* * *

رحلت بصحبة هذا السيد واتخذنا طريقنا على طول نهر الدانوب حتى دخلنا
بلاد الحجر وهى بلاد بالغة الاتساع، كثيفة السكان ، تزخر بالحصون الكبيرة
والواقعة على الحدود الألمانية .

وصلنا إلى مدينة « بودا » التى تبلغ فى حجمها حجم مدينة « وادى الوليد »
ويشقها نهر الدنوب ، كما أنها تعد أكبر مدن بلاد الحجر ، ويكثر فيها الصناعات
ولكنها لا تبلغ شأو المدن الألمانية فى النظافة ، وأهلها أميل إلى الامتلاء ،

مما يرجمه البعض إلى ما يتقلبون فيه من الترف ، وقد قام الإمبراطور
سجسمند بإدخال تحسينات جمة بالمدينة ، وشيّد قصرًا رائعًا بها أقام فيه
قاعة استقبال ضخمة تشبه تلك التي في « بادوا » ولكنها لم تبدُ اعينى في
روعتها .

رحلت من هناك حتى بلغت حدود الجر ودخلت ألمانيا وجئت إلى مدينة
اسمها « نويشتمات » أى « البلدة الجديدة » ، فألفت بها الإمبراطور
الحالى فردريك الذى كان إذ ذاك دوق النمسا (١٧٣٢) ، وهو ابن عم الإمبراطور
ألبرت ولكنه لا يبلغ من النبل مبلغه ، وكان مشغولاً حينذاك بالاحتفالات
التي أقيمت لزواج ابنته من والى « ميسين » المشار إليه سابقا الذى كان قد
أنزل الهزيمة بالبوهيميين ، فبقيت مع الدوق الذى أصبح الآن إمبراطوراً ،
ولازمته أسبوعاً كاملاً ، وهنا التقيت مرة أخرى برفيق رحلتى الثانى الذى
أبدى لى كثيراً من الرعاية والرقّة، كما فعل مثل فعله الدوق الذى كنت أتناول
معه طعام الغذاء كل يوم .

جاء لمشاهدة عقد القران جمهور كثيف جداً من الناس من ألمانيا، ولم
يكونوا من أهل بيته فحسب لضخامة مكائته ، بل كان فيهم جماعة
من بنى جلده وأصدقائه ، وكانت العروس سيدة رقيقة فكان الحفل
كرماً ، أما عرسها فكان متقنياً فى وطنه بسبب الحرب ، فأخذوا
العروس إليه .

أما الدوق — وهو الإمبراطور الحالى — فقد بلغ من الثراء حدا
ليس بعمده زيادة لمستزيد وإن قيل إنه يعرف جيداً كيف يحتفظ بما لديه ،
وكان قد عاد من بيت المقدس قبل رحيلى بعدة أيام ، وسره كثيراً أن

يتحدث إلى بخير البلاد الواقعة فيما وراء البحر ، ونشطت نفسى بصحبته ،
ثم استأذنته فى الرحيل فأذن لى ، وبعث بالتابع الذى كان قد رافقنى إلى
الحجر إلى مولاه الذى كان على مسيرة رحلة يوم من هذا المكان .

. . .

تركت « نويشتات » مخترقا بلاد هذا الدوق الواسع الأملاك ، ماراً بمدنه
وبلدانه وقلاعه حتى بلغت جبال الألب التى لقيت المشقة الكبرى والخطر
الجسيم فى اجتيازى إياها بسبب الصقيع الشديد ، على أن الأمر الذى
يستوجب الالتفات أن هذا البرد لم يحل دون ازدحام جميع
الممرات بالسكان وتوافر المثونة بكثرة ، وكان البنادقة قد اغتصبوا كل هذا
الإقليم من الإمبراطورية^(١٧٣) ، فبنوا فى الممرات والمعابر الضيقة أسواراً
وأبواباً يغلقونها عليها ، كل ذلك ليقوّوا من بأس طغيانهم ، ثم انحدرت
نحو إيطاليا وجئت قطراً بسمونه « فريولى » يتبع بطرك « أكويليا » ،
وكانت له أملاك كثيرة فسيحة فى هذه الناحية ، إلا أن البنادقة استولوا
عليها كلها ، ولقد رأيت البطرك فى بلاط الإمبراطور شاكياً إليه هذا الأمر ،
ولاشك فيما يقال من أنه لو لم يمت الإمبراطور لعاجله البنادقة بالسلم بعد أن
أن تراى إلى سمعهم نبأ اليمين التى قطعها على نفسه بأن يسلبهم كل ما فى
حوزتهم من أشياء تملكوها قسراً واغتصاباً .

ثم ذهبت إلى « تريفيسو » ، وكانت هى الأخرى من المدن التى
احتلها البنادقة ، وهى مدينة كبيرة غنية واقعة على مقربة من الحجر ، وتبعد
عن البندقية رحلة يوم تقريباً .

. . .

رغبت فى أن أتوجه حالاً إلى البندقية ، ولكنى سمعت أن البابا قد

اعتزم مغادرة « فرارا » إلى « فلورنسا » ومن ثم حثت الخطأ لأصل قبله ، فحُت إلى مدينة « بادوا » التي تسكاد تبلغ حجم إشبيلية تقريبا ، وتمتاز بشدة ثرائها ومركزها التجاري العظيم ، وتقع على مقربة من البحر ولا تبعد عن البندقية بأكثر من نصف يوم ؛ وكان البنادقة قد أخذوها هي الأخرى من صاحب « كرارا » التي كانت من أملاكه الدينية ، وقد ذهب هو أيضاً إلى الإمبراطورية شاكيا إليه صنيع البنادقة . ولقد علمت أن البابا لن يرحل إلا بعد خمسة أيام أو ستة ، فبقيت في « بادوا » ثلاثة أيام ، والواقع أنها تزخر بكثير مما يستحق المشاهدة ، ففيها جامعة عظيمة جدا تُعدّ من أحسن جامعات العالم المسيحي ، وبها دير ضخم غني يضم جمائى القديسين « أنطونيوس دى بادوا » و « لوقا الإنجيلي » وهو مكان شهير مقصود للحج والعبادة .

وفي وسط المدينة قاعة كبيرة^(١٧٤) تبلغ ضعف حجم أى قاعة مما رأيت ، وسطحها مغطى بالرصاص ، أما داخلها فبمعدن البلاتين ، وسقفها أزرق اللون بديع الرسوم محلىً بنجوم ذهبية ، وفي وسطها قضبان من الحديد على شكل أعمدة ازدانت بصور تفاح ذهبي اللون كبير الحجم ، وقد صوّرة عليها قصة العالم منذ بدء الخليقة إلى ظهور للمسيح .

ويقولون إن الرسم وحده تكلف أكثر من أربعة ألف دوكات ، وتدور حول القاعة مقاعد خشبية حيث تقام العدالة ويقضى بين الناس ، أما في الخارج فتوجد مجموعة من الأعمدة الباسقة .

وللقاعة أربعة أبواب ، على كل منها تماثيل رخامية ، إثنان منها لتخليد ذكرى رجال العلم من أجل هذه المدينة لاسيما « تيتس ليفيس » المؤرخ « وبطرس أبانو^(١٧٥) » أحد كبار السحرة الذي أحرقه الإخوان الصغار لقيامه بأمور عجيبة

رائعة ، مثل سَحْبِهِ سفن القسطنطينية مباشرة إلى ميناء البندقية وغير ذلك من الأعمال التي تدخل في قدرة السحرة .

وقد أقام القوم تحت هذه القاعة حوانيت لصناع الملابس والأحذية ، ويستطيع المرء من هناك أن يتبين نغامة القاعة حيث يوجد جميع تجار المدينة رغم شدة اتساع المدينة التي تحتوى على بعض المباني الشديدة القِدَم ، وقيل إن بانيتها « أنتينمور » بعد خراب طرودة ، والواقع أن مبانيها ذات طابع قديم . وحدث في يوم وصولي أن كان حكم القضاء ينفذ في أحد أهالي بادوا لاغتياله فارساً من أهل قطلونيا واسمه « موزن فيلافرانسكا » كان قد نزل ضيفاً على هذا المواطن .

الفصل الثامن والعشرون

فرارا . البابا يرسل إلى فلورنسا . البندقية .

فيرونا . فلورنسا . البابا والإمبراطور .

بيزا . بولونيا . البندقية .

. . .

تركت بادوا وسافرت عبر القنوات ، ولما كان هذا الإقليم قريبا كل القرب من البندقية فإن الناس يجمعون المياه في بحيرات بعضها عذب ماؤه وبعضها ملح أجاج ، لكنها ذات رائحة كريهة جدا ويسمون بها بالمستنقعات، وإذا أراد الإيطاليون الإشارة في كلامهم إلى شيء عفن أو نتن شبهوه بهذه المستنقعات . ولما اقتربنا من « فرارا » أخبروني برغبة البابا في مفادرتها ، وكان حقا ما قالوا ، فقد وجدت البابا على وشك الرحيل إلى فلورنسا حين وصولي ، ولم أكد أبلغها حتى مضيت إلى إمبراطور اليونان الذي لم يكتم سروره البالغ لرؤيتي مرة أخرى ، ورأيت تقدم البابا الذي تم على الصورة التالية^(١٧٦) ، فقد نهض لاستقباله موكب خرج فيه جميع الأساقفة ورؤساؤهم والكنهة والقسس حاملين الصليبان سيراً على الأقدام ، وجاء من بعدهم الكرادلة على ظهور الجياد، وعكا كيزم في أيديهم على النظام السابق ، ومن ورأيهم اثنا عشر حصانا عليها حلل قرمزية ، قد وضعت المظلة على أحدها ، والكرسي على الثاني ، والوسادة على الثالث وهكذا حتى النهاية .

وأما الحصان الأخير فكان مغطى بنسيج حريري مشجر ، كما وضعوا

العشاء المقدس المبارك في وعاء محمول على سرج فضي ، وعلقوا إلى هذا الحصان ناقوساً ذهبياً يقوده اثنان من الشماسة من اللجام .

ثم جاء البابا نفسه معتلياً جواداً في زينات قرمزية ، وقد ارتدى مسوح القدس ، ولبس تاج الأسقفية ، وراح يبارك الواقفين على الجانبين ، بينما مضى الرجال ينثرون قطع العملة في الشارع لينال ملتهطوها الغفران ، وقد عمدوا إلى هذه الوسيلة ليمنعوا جموع الناس من التزاحم على البابا الذي كان مركز «فرارا» وكونت «أربينو» يأخذان بلجام حصانه .

وجرت الشائعات أن دوق ميلان يتربص لالتقبض على البابا ، ومن ثم قام المركز بحراسته ذلك اليوم حتى أوصله إلى صومعة على بعد ميل من هناك ، وكان في صحبته حشد كثيف من الرجال المسلحين ليوقع في وهم الرأى ما يخال معه كثرة القوات الحربية المرافقة للبابا في سفرته إلى إحدى مدنه حيث كان قد أعدت احتفالات كبيرة ، ولكن الواقع أنه ركب معه في اتجاه مخالف حتى أوصله إلى فلورنسا صباحاً بعد يومين ، ويقال إن البابا قدّر للمركز هذا الصنيع وغيره من الأيادي التي قدّمها له ، تخفيض الضريبة المفروضة على المركز إلى ثلاثة آلاف دوكات ، وأقر جميع امتيازات ميلان مما يتجلى من الرسوم الذي نقشه المركز على لوحة حجرية وضعت في كنيسة فرارا الجامعة .

تلبّثت يومين في فرارا، ثم رغبت في السفر فلم أجد مناصاً من الرحيل إلى فلورنسا لأن كل المصارف كانت مغلقة ، وكان جميع الصيارفة قد رحلوا ، ورغب الإمبراطور في أخذى معه لكنني رحلت تاركاً جيادى في فرارا للعليف ، ومضيت إلى البندقية للوقوف على خبر بضاعتي ولأخذ حظى من الاستجمام ، بينما كانت جيادى تستعيد نشاطها وتجدد قواها في فرارا .



أما الإمبراطور فقد رحل في اليوم الثاني وبقيت أنا في البندقية، فنزلت نزلاً طيباً أحسست فيه كأنني في داري، ورأيت أنني مدين بالفضل الكبير إلى صديق التاجر الذي عهدتُ إليه بمتعلقاتي، إذ الواقع أنه لم يكن في الإمكان أن أعهد بها إلى أحد خيراً منه، وكان يستعد للرحيل إلى إشبيلية، فسألته إن كان يقبل أن يشحن معه بضاعتي إليها، ولم أستبق معي غير النقود، فأجاب سؤالي وأدّى لي هذه اليد الكريمة عن طيب خاطر كما فعل من قبل معي، فبقيت معه بالبندقية حتى رحل.

وفي هذا الوقت الذي كان البابا يعقد فيه بلاطه في « برشيا » تواترت الأنباء بأن دوق ميلان قد ملأ تلك المدينة بقوارب جاء بها من البحيرة مما استحال معها إدخال المؤونة، وأن البنادقة جهزوا غراباً واستطاعوا بدهائم نقله على اليابسة عبر جبل في الجبال يطاول ارتفاع جبال قشتالة، ثم جرّوه وأنزلوه في البحيرة^(١٧٧)، وأحسب أن مائة ألف من الناس قدموا لرؤية هذا العمل الباهر، وما كان لهم إلا أن يفعلوا ذلك لأنني لم أشاهد قط ما يجاريه روعة أو يبلغ ما بلغه من صعوبة لا يكاد يصدقها الإنسان، فما كاد الغراب ينزل الماء حتى حطم جميع القوارب الأخرى، فلم توات الشجاعة غيره من القوارب على الجيء، وبذلك نجت المدينة ورفع عنها الحصار رغم أن أهل ميلان راحوا يتشدقون ويزعمون استيلاءهم عليها، فذهبتُ لرؤية رجال دوق ميلان الذين كانوا هناك وفي صحبتي « نيكولا بتشيرينو »^(١٧٨) قبطانهم فكانوا جيشاً جميلاً جداً.

* * *

سافرت حتى جئت إلى مدينة « فشنزا » الجميلة التابعة للبندقية، ثم وصلت بعدئذ إلى « فيرونا » وكانت هي الأخرى من أملاك البنادقة، وهي مدينة

كبيرة غنية رغم قلة عدد سكانها كما أنها قديمة جداً، والوارد عنها في الأخبار أن الفضل في تشييدها يرجع إلى جهود المنفيين الرومان الذين أطلقوا عليها اسم « فيروما » ومعناها « ها هي ذا روما أخرى » ، والواقع أنه يمكن رؤية كثير من الآثار الرومانية بها مما يقوم دليلاً على التشابه بينهما .

ثم عدت إلى البندقية وبقيت هناك يومين ورحلت بعدها إلى فلورنسا حيث وجدت البابا والإمبراطور ، فجمعت أموالى ومكثت بها ثمانية أيام أشاهد المدينة التي هي من أعجب مدائن العالم المسيحي اتساعاً وثراءً وحكومة ، ويحكمها أشخاص ينتخبون بالقرعة كل شهر ، وقد تقع القرعة على إسكافي أو شريف ، وعلى أية حال فليست هناك حكومة أنشأوها .

وفلورنسا غاصة بالبيوت الجميلة والشوارع والفنادق الفخمة ، وقد ضربت بسهم وافر في النظافة والنظام ، إلى جانب ما تحفل به من الكنائس الرائجة والأديرة ، ولا يوجد ضريب في العالم المستشفياتها ، فهناك واحدة للرجال وأخرى للنساء ، وهى نظيفة جداً وحسنة الترتيب والتجهيز ، وإذا مرض ملك أو أمير بادر في الحال إلى قصره والاتجاه إليها طلباً للشفاء ، وزيادة على ذلك فهناك غرفانات لمن يعيش فيها ، وغفران تام لمن يموت بها ، فمن ذا الذى يستطيع أن يُقدّر العمل الطيب الذى تقوم به هذه بیمارستانات ؟ ذلك أن كل مريض يقيم حسب مكانته ولكن العلاج واحد للجميع ، والواقع أن فلورنسا قد أنجبت رجالاً عظاماً بارعين في العلوم ، ولا زالت على ذلك حتى اليوم .

وكنيسة هذه المدينة الجامعة من الكنائس التي نالت غاية الشهرة ، كما تحفل بالمباني الرائجة لاسيما البرج القائم عند باب الكنيسة المزين تقريباً حتى قفته بالتماثيل الرخامية ، وأمامها ميدان فسيح تقوسطه كنيسة بلغت من الضخامة حداً كبيراً ، قد زين داخلها بالسيفساء وغطى خارجها بالرصاص ، وتدعى بييعة

القدس « يوحنا المعمدان » ، وبها حوض معمودية كبير وهيكل يقبضون به
القدس، وقد رفعت خفاقة رايات جميع المدن التابعة فلورنسا والخاضعة لحكمها،
فقد نهجت فا سا - بفضل حكومتها الرشيدة - في الاستحواذ على الكثير
من الأراضي ، حتى إن مدينة ييزا نفسها - التي كانت فلورنسا تابعة لها حيناً من
الزمن - قد صارت في ولايتها، وأصبح حكمها الآن يتولون شئونها بأنفسهم .

* * *

ومدينة ييزا - كما يقولون - كانت تملك في وقت من الأوقات جزائر
صقلية وسردينيا وكورسيكا وولايات أخرى شاسعة في البر ، لكن حدث
ذات مرة أن اجتازت بهاسفينية كان عليها أحد السكرادلة وبعض القسس وجماعة
من سفراء البابا في طريقهم إلى ملك فرنسا، ولم تؤد السفينة التحية المألوفة^(١٧٩) ،
وإذ ذلك هرع البيازنة إلى سلاحهم فامدشقوقه ، وأمسروا السفينة وأحرقوها؛
فلما سمع البابا بهذا النبأ اشتد به الغضب وأمر بإعلان الحرب على البيازنة
واعتبرها حرباً صليبية وجهاً دينياً وأنزل بهم ضرراً بليغاً ، ولم يفتئ غضبه
إلا بتدخل بعض الملوك والأباطرة ، وكف منح الغفران لهؤلاء المجرمين بسبب
نهوضهم إلى المدينة المقدسة واحتلالها ، وإذ ذلك أعد البيازنة أسطولاً ضخماً
خرجوا به واستولوا على بيت المقدس وتوابعها وأقاموا بها ردحاً من الزمن،
لكن تبين لهم في النهاية أن المحافظة عليها تكلفهم غالباً فباعوها : الأمر الذي
يُظن أن جميع مصائبهم جاءت منه ، ويشك فيما إذا كان بالمدينة الآن ييزى واحد
وُلد ولادة طبيعية ، وكان عليهم أيضاً أن يهدموا مبانيهم وأن يلبسوا
قلانسهم مقلوبة آية على دنسهم ، ومن ثم فإن الناس قاطبة يستنكفون منهم،
وهكذا ذُلوا لمن كانوا بالأمس خدمهم .

ويقال إن البنادقة والجنوية كانوا بيت المقدس حين احتلال البيازنة

إليه ، فلما سقطت المدينة في أيديهم عمدوا إلى تقسيم الكنز الذي وجدوه أقساماً ثلاثة ، فجاءوا إلى أحد هذه الأقسام واتخذوا مكاناً للكأس المقدس المصنوع من قطعة واحدة من الزمرد ، ووضعوا في الثاين العمودين اللذين كان المرء يستطيع أن يقنّباً بالخطر من كل منها بالشروع التي ستحقق بهوما يرغبه ، أما القسم الثالث فقد جعلوه موضعاً للكنز .

ثم أخرجوا سهامهم يشاورونها فكان الكأس المقدس من نصيب جنوة حيث لا يزال إلى الآن كما رأيتُه بنفسى^(١٨٠) ، ونال البيازنة مدينة بيت المقدس والعمودين اللذين نقلوهما إلى بيزا، أما البندقية فأخذت الكنز الذي هو أساس جميع ثروتها ، غير أن العمودين المذنبين نقلوا إلى بيزا فقدا ميزتهما حين بيعت بيت المقدس .

وبيزا كنيسة شهيرة جداً ودير قد نقلت تربته من أرض بيت المقدس الكريمة ، واشترت هذه التربة بثلاثين قطعة من الفضة وتسمى هنا في بيزا بالتربة المقدسة Campo Santo ، ويقال إن الجثث التي تدفن هنا لا تبقى أكثر من ثلاثين يوماً لأن الأرض تغنيها .

وليس من شك في أن بيزا كانت مكاناً عظيماً ، فيناؤها نهر يصل إلى المدينة فتدخلها الأغرابة وتصدر عنها ، أما «الجهورن» القريبة منها فهي الميناء الرئيسي للشواني والسفن .

• • •

رحلت عن فلورنسا وجئت إلى بلدة يسمونها «فيرنزولا» وهي تقع في جبال «بستويا» حيث انتصر هانيبال في وقعة «كاناي» ، ويوجد على مقربة من «فيرنزولا» نهر يلتف حول حقل محترق كله^(١٨١) ، إذا رموا بالخشب فيه

احترق في الحال ولكن لا يظهر أثر لنار أو شيء يحترق.

وهذه عجيبه كبرى .

وقد تسلقت هذه الجبال الشديدة الوعورة رغم ازدحامها بالسكان، ووصلت إلى مدينة بولونيا العظيمة الشهيرة ، ثم رحلت عنها إلى « فرارا » وأخذت جيادى التى كنت قد تركتها للرعى والسكّالاً ، فوجدتها قد أصبحت شديدة السمنة فبعتها وعدت إلى البندقية حيث مكثت شهراً في انتظار إحدى السفن لنقلى ، حتى وجدت أخيراً واحدة ميممة شطر صقلية فجمعت كل متاعى وركبتها.

الفصل التاسع والعشرون

العودة لوطن . رافنا . برنديزي . مضيق مسينا . الحوريات .
جزائر ليباري . بالرمو . سرقسطة . جبل إتنا .
تونس . سردينيا .

...

غادرنا البندقية وأبحرنا مصابين للساحل الإيطالي حتى بلفنا مدينة اسمها
« رافنا » وهي مدينة قديمة جداً ، جئنا منها إلى « ريمني » التابعة لكونت
« أريبنودا مالا تيستا » ، ثم مضينا إلى مدينتي « بزارو » و « فانو » الجبلتين ،
وأدركنا في النهاية « أنكونا » وهي من أملاك الكنيسة ، ثم أبحرنا إلى ميناء
« برنديزي » الرائع ولعله أجل من أي ميناء آخر وقعت عليه عيناي ، وهو
في منطقة أبوليا التي يسمونها *Tierra di Lavoro* .

فلما كان اليوم الثاني رحلنا عنها ، واثنيينا عند رأس « سبارتيفنتو » ،
ثم أبحرنا يمينا لأن الريح كانت مواتية لنا فبلغنا هذا المساء جزيرة صقلية ،
فبقينا بالبحر حتى طلع اليوم التالي ، ثم خرجنا - في جو طيب - خلال مضيق
مسينا - تاركين « قلمورية » الواقعة في مملكة نابلي على يميننا وصقلية على
شمالنا ، حتى أرسينا عند مدينة « مسينا » بعد جهد شاق بسبب التيارات العنيفة
الموجودة هناك .

ويزعم الشعراء أن هذا المضيق كان موطن عرأس البحر ، ويقولون إن
نابلي وجزيرة مسينا كانتا في وقت من الأوقات متصلتين ببعضهما ببعض

وكانتا تؤلفان قطرا واحدا ، غير أن زلزلاً فصل هاتين الجزيرتين بعضهما عن بعض ، والبحر هنا أعمق منه في أى مكان آخر .

ويقولون أيضاً إن في هذه النواحي نوعا من السمك على شكل امرأة من الوسط إلى أعلاه ، أما أسفل ذلك فيشبه السمكة ، وتعيش هذه المخلوقات في الأعماق حيث يمكن ملاحظة أول تحركات الرياح ، فإذا أحست بالحركة وكانت قوية جدا أدركت أن عاصفة جاعحة على وشك الوقوع ، وإذ ذاك تظهر على سطح الماء وهي تغنى أغنيةً ، ويزعمون أن الموت الحقيق من نصيب من يسمعا ولا نجاة له منه ، فهى أغنية حزينة نادرة ، لأن هذه المرائس لا تغنى إلا حين تشتد العاصفة وتزجر غاضبة فلا تتمبأ النجاة منها لأحد إلا بمعجزة .

والماء عند ميناء مسينا شديد العمق مما يمكن السفن الكبيرة أن تسير فيه ، ويعطوه لسان من الأرض أشبه بالرصيف الصناعى ، ويوجد عند أحد أطرافها دير للرهبان^(١٨٢) اليونان ، وعند الطرف الآخر ترسانة السفن .

والمدينة غاصة بالمباني الكبيرة وهى قديمة جدا ، وقد أكثر من الكتابة عنها الشعراء والخطباء والمؤرخون القدامى لاسيما فى الحرب البونية الأولى ، وهى مسورة أحسن تسوير ، وتكثر الحدائق الجميلة بداخلها وخارجها، وهى حسنة الرى ، وعلى الرغم من أن مساكنها الآن متناثرة بعض الشيء إلا أن فى قدرة الناظر إليها أن يدرك أنها كانت عظيمة فى وقت من الأوقات .

وفوق المدينة - تجاه قلمورية - يوجد مكان اسمه « ريجو » ؛ والمضائق شديدة الاتساع حتى ليستطيع المرء فى اليوم الصحو أن يرى الشخص راكبا جوادا على الساحل بالجانب الآخر .

تركت مسينا وجئت إلى « يانى » وهى بلدة صغيرة فى نفس الجزيرة،

وأمامها جزيرة البركان التي يقولون إنها أحد أفواه الجحيم الثلاثة لأنها تقذف
بلا انقطاع النيران المصحوبة بدمدمة الرعد وكميات ضخمة من Scoria المشة
التي تبلغ في خفتها حدا تطفو معه على سطح الماء .

وعلى مقربة منها توجد فوهة أخرى يسمونها « سترمبولي » ترمى بالحجم
كسابقتها ، وتتصل بها جزيرة صغيرة يسمونها « ليباري » يعانى أهلها شدة
الآلام في عيونهم من جراء الدخان المتصاعد من سترمبولي، وهي مركز الأسقفية
الرئيسي ، ورأيت بها - وأنا أحاول الرسو - أكبر سمكة تسنى لى رؤيتها ،
فقد بلغت من الضخامة مبلغ برج كبير .

ركبنا هذا اليوم لأن سفينتنا لم تستطع التقدم من جراء الهدوء الشديد ،
وكان هناك غراب إسلامي ضخم يصحبه إثنان أصفر منه، وقد خرجت كلها
للقرصنة وراحت تدنو منا وإن لم تجرؤ على مهاجمتنا ، ومن ثم بقينا هذا اليوم
حيث نحن حتى صلاة الغروب حين هبت ريح رخاء وملأت أشرعتنا ، فظللنا
مبحرين طول تلك الليلة ، فلما كان فجر اليوم التالي أصبحنا على مقربة من جبل
« بلجرينو » الذي يعلو ميناء « بالرمو »، فأرسلنا به ونزلنا إلى الشاطئ لينجز
القائد عماله هناك، وبقينا به مدة ستة أيام .

وتبلغ مدينة بالرمو في الضخامة مبلغ إشبيلية، ثم أخذت في الاتساع الشديد
منذ أن شن ملك أراجون الحرب على نابلي حتى لقد زاد عدد سكانها الآن
كثيراً عما كان عليه من قبل ، وهي المركز الرئيسي للمواصلات ، كما أنها
مركز أسقفية ، وتبعد الكاتدرائية عن البلد مسافة ميلين ، ويكون فيها تنوع
ملوك هذه النواحي ودقهم بها ، وهي كنيسة نخمة مزينة أبهى زينة وحلاة
بأجل فسيفساء رأبته في الأقطار اللاتينية ، وتسمى كنيسة « مونريالي » (١٨٢) .

وقد أصابت مدينة بالرمو حظاً وافراً هيأته لها تجارتها ، كما أنها حافلة بكل شيء ، وتقع في قطر كبير وتعتبر من أكبر مدنه ، وتشتهر بما يوجد فيها من قصب السكر .

«ومونت بليجرينو» جبل شديد الارتفاع كثير المياه واسع المرعى ، ويقول الناس إنهم لا يكادون يأخذون إلى ذلك الجبل أى حيوان على وشك الموت حتى يشفى في ثمانية أيام ، وتبعث هذه المدينة إلى ملك أرغونة في نابلي بإمدادات وفيرة من الأقوات والجياد ، ويقوم أهلها ببناء السفن المسماة باسم «طيفورية» التي تحمل الواحدة منها ستين حصاناً أو أكثر .

غادرت «بالرمو» وذهبت إلى «تراباني» الواقعة عند نهاية الجزيرة، وهي ميناء جيدة جداً وبها برج يسمونه برج «كولبريا» يصيدون على مقربة منه للرجان^(١٨٤) ، وهو مكان رائع حسن البناء ، ويعلوه جبل عال يسمى بجبل «مونت تراباني» حيث يسجى جمان «أبي أنياس» .

رحلنا عن هذا السكان وأبحرنا حول الجزيرة متجهين ناحية الشرق حتى بلغنا «جرجنتي» ، ثم مضينا إلى مدينة مرقوسة اللطيفة التابعة للمسكة أرجونة أخت مولانا الملك جوان، ثم جئنا بعدئذ إلى «قطالونيا» الواقعة على منحدرات جبل «إتنا» ثالث أبواب الجحيم ، فاستبضعنا وأوسقنا السفينة بالبضاعة، ثم أبحرنا بعد ثلاثة أيام ميممين شطر سردينيا ، لكن فاجاتنا في وسط البحر ريح شرقية قادمة من اليونان دفعتنا تجاه تونس ، فظلنا مبحرين يوماً وليسلة حتى بلغنا في الساعة الثالثة من اليوم التالي رأس «بلانكو» وهي ميناء تونس، فألحّت بي الرغبة في النزول إلى الشاطئ لمشاهدة البلدة فلم يأذن لي القائد بذلك لأنه كان قد اعتزم الرحيل لتوه .

* * *

وميناء تونس شديد الضحالة فلا تستطيع السفن دخولها ، من ثم فإنها تفرغ حولتها في قوارب خفيفة ، وقد بقينا هناك يوماً واحداً ثم أبحرنا مدة يومين وليتين حتى جئنا إلى جزيرة سردينية التابعة لملك أرجوننة، ودخلنا ميناء « كاليارى » وهو مكان لطيف ؛ فأفرغنا به ما معنا من البضائع وأقمنا به يومين .

وهذه الجزيرة غير صحية هي ذات هواء سيء وماء رديء . . .

(هنا ينتهى ما هو موجود من خبر الرحلة) .

obeikandi.com

حوانى
رحلة طافور

obeikandi.com

(١) كان دوق هنرى كونت بلبله أحد فرسان عصره البارزين ، ويظهر أن هجومه على جبل طارق قد وقع في ختام سنة ١٤٣٥ حيث نستدل من كلام طافور فيما بعد (انظر الفصل الثاني ص ١١ حاشية رقم ٩) على موعد وصوله إلى جنوة ، وهناك كثير من المؤرخين يجمعون وفاة الدوق هنرى في سنة ١٤٣٦ ، ويلاحظ أن خبر الثورة في جنوة بلغ مسامع الملك جوان في مستهل يناير ١٤٣٦ (انظر Cronica de Don Juan II. Ch. III.)

(٢) الملك الذى نسمع عنه كثيراً في قصة طافور هذه هو خوان الثانى ملك قشتالة (١٤٠٦ — ١٤٥٤ م) ، وقد تزوجت ابنته إزابلا الكاثوليكية من فردينند صاحب أراجون .

(٣) المقصود بذلك ليلة عيد ميلاد ١٤٣٥ م .

(٤) لا نستطيع الجزم بمن كان الدوج في ذلك الوقت أهو توماس فريجوزد ، أم أنزار دو جاركى ؟

(٥) صورت الأسطورة المتعلقة بشأة جنوة على حوائط كنيسة سنت لورنزو ،

انظر في ذلك Carden: Genoa, (London, 1908, p. I.

(٦) كانت «الساكرو كوتيو» جزءاً من الأسلاب في قيصرية عام ١١٠١ م وهي مصنوعة من الزجاج ، وقد أرسلت إلى باريس وعرضت هناك سنة ١٨١٥ ، ونظراً لعدم العناية بها فقد تحطمت في الطريق .

(٧) حدث في سنة ١٣٧٣ أن قتل بعض التجار الجنوبية مما أدى إلى إرسال أسطول إلى قبرص وجي بالملك بطرس الثانى أسيراً مع عمه ، وفرضت عليها غرامة كبيرة ، وسلمت «فاما جوستا» إلى الجنوبية كجزء من الفدية التى قررت لإطلاق سراح الملك ، أما الطفل الذى ولد في جنوة فكان ابن العم وأصبح فيما بعد يعرف بالملك جانوس الثانى ومات سنة ١٤٣٣ ، ويلاحظ أن ابنه جانوس الثالث

كان يتولى العرش وقت زيارة طافور لقبرص ، انظر Stubbs : Lectures

on Medieval and Modern History. pp. 225—228 .

(٨) كان الملك إذ ذاك - أعنى وقت زيارة طافور للجزيرة - هو جانوس الثالث ،
وفى للراجع العربية للعاصرة كالسلوك للمقريري وإنشاء العمر لابن حجر وعقد الجمان
للعيني والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن إشارات متمددة لدفعه الجزية لمصر .

(٩) ليس من شك في أن جنوة بلغت مبلغاً كبيراً من النشاط التجارى في إبان
هذه الفترة ، غير أن التوامرات الداخلية الكثيرة كانت عائقاً يثقف في سبيل ازدياد
هذا النشاط إلى الحد الذى يمكنها به أن تكون منافسة للبنديقية ، بل إن جنوة
اضطرت تحت ظروف خاصة القبول السيادة الأجنبية عليها فدانت للألمان ثم لأهل
ميلانو، أما الاضطرابات التى يشير إليها طافور في اللبن والتى كان هو شاهد عيان لها
قد ترتبت على هزيمة ألفونسو صاحب أراجون على يد الجنوية وأسرهم إياه في معركة
بحرية أمام بونزا Ponzia وذلك فى أغسطس ١٤٣٥ ، هذا وقد كان ألفونسو
طالب بمعاملة تالبي عند موت جوانا الثانية وبذلك دخلت جنوة ميدان النزاع ،
ولما تم للجنوية أسر ملك أراجون غضبوا إذ رأوا أسيرهم يؤخذ إلى ميلان حيث
تلقاه دوقها بالترحاب وحالفه واتخذ صديقاً ، هذا وقد وقعت الثورة التى يشير
إليها طافور بالآتين فى ديسمبر عام ١٤٣٥ ، وفيها لقي الحاكم « أوبرينو » مصرعه
ذبحاً ، راجع Carden: Geneo, pp. 89 seq.

(١٠) كان الكونت Francesco Sforza (١٤٠١ - ١٤٦٦) فى هذا
الوقت بالذات مشغولاً بالحرب ، إذ حارب فى صف ميلان ضد البنديقية ، أما الآن
فكان يحارب من أجل البابا والبنديقية وفلورنسة ضد ميلان .

(١١) كان نيكولا Piccinino (١٣٨٦ - ١٤٤٤) واحداً من أنفع المقاتلين
وقطاع الطرق وأقسام قبا .

(١٢) سترد الإشارة فيما بعد بالتفصيل إلى فلورنسة وذلك فى الفصل الثامن
والعشرين من رحلة طافور هذه .

(١٣) للتصود بذلك البابا يوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) الذى كان
قد فر من رومة إلى فلورنسة فى يونيو ١٤٣٤ وذلك عقب مقاومته لقرارات مجمع
« بازل » للتعقد فى سنة ١٤٣١ ، وكان يوجين الرابع هذا قد أمر بفض جلسات

مجمع بازل رغم معارضة أعضائه الذين اعتبروا جلساتهم مستمرة ومفتوحة ، وقد عاش البابا ثمانى سنوات في المنفى الإرادى الذى اختاره لنفسه ، ووجد أن خير وسيلة لمحاربة مجمع بازل هو عقد مجمع آخر فى Ferrara عام ١٤٣٧ ، وقد اتخذت فى هذا المجمع الأخير خطوة هامة هى بحث محاولة القضاء على الخلافات القائمة بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية ، راجع فى ذلك :

Gregorovious : Rome in the Middle Ages. (Eng. Translation). Vol. VII, pt. I, p. 45.; Lodge : The Close of the Middle Ages.

(١٤) كان حاكماً إذ ذاك هو نيقولا الثانى (١٣٨٣ - ١٤٤١) ويعتبر المركز الثانى عشر من حكمها ، انظر أيضاً فيما بعد الفصل الحادى والعشرين من هذه الترجمة العربية .

(١٥) انظر ما كتبه طافور تفصيلاً عن البندقية فى الفصل العشرين من هذه الرحلة .

(١٦) كان خان السمكة هذا من أشهر الخانات فى العصور الوسطى إبان هذه الحقبة .

(١٧) فيما يتعلق بروما عام ١٤٣٦م انظر Gregorovious : Rome in the Middle Ages, VII. pt. I, p 89 وقارن الملاحظات التى جاء بها طافور فى هذا الفصل عن الحيوانات الضارية فى روما بما جاء فى الكتاب المذكور (ج ٦ ق ٢ ص ٦١٨) حيث يشير إلى أن القوم قتلوا خمسة من الذئاب الكبيرة عام ١٤١١ كانت تسرح فى حدائق الفاتيكان .

(١٨) فيما يتعلق بكنيسة بطرس راجع : Marucchi : Basiliques et Eglises de Rome (1909), p. 110 وما تضمنه من الرسم والخرائط ، أما أساس الكنيسة الحالية الموجودة الآن فقد وضع فى سنة ١٥٠٦ .

(١٩) كان الذى وضع المسلة فى المكان الموجودة به الآن هو Sixtus V سنة ١٥٨٦، وكانت العقيدة الشائنة بين الحجاج هى أن كل من يسير زحفاً على ركبتيه تحت هذه المسلة تجب خطاياه وتغفر ذنوبه ، انظر فى ذلك : F.M. Nichols,

The Marvels of Rome, Lond., (1899). pp. 71-78 & notes.

(٢٠) الأرجح أن هذا إشارة إلى تمثال ماركس أوريليوس الذي كان يقوم إذ
ذلك في مواجهة الكنيسة ، انظر في هذا E. Rodochanachi : The Roman
Capitol (Eng. Trans.) p.p. 131 ff.

(٢١) فيما يتعلق بالروايات والأساطير المتعددة المتعلقة بهذا الأمر راجع F.M.
Nichols : The Marvels of Rome (1889) pp. 62, 102; G. Mc. N. Rushforth :
in The Journal of Roman Studies (1919), p. 14.

(٢٢) فيما يتعلق بأسطورة أوجستوس والتنبؤ بولادة المسيح ، انظر :
Nichols: The Marvels of Rome, pp. 35, 90.

(٢٣) يقصد بذلك البانثيون .

(٢٤) Nichols : op. cit. p. 11.

(٢٥) يرجع قيام الكنيسة الوجودية حالياً وهي المروفة بكنيسة
S. Paolo alle Tre Fontane إلى سنة ١٥٦٠ م ، أما طافور فيشير إلى كنيسة
S. Anastasios alle Tre Fontane التي أهديت عام ١١٩٠ إلى القديس برنارد الذي
أوجد هناك ديراً للرهبان للبيض .

(٢٦) لا نعرف مصدراً آخر لهذين النصين .

(٢٧) هو براشيو دامونتاني Braccio de Montane (١٣٦٨ — ١٤٢٤)
وكان أحد المخاطرين الأشقياء وخصماً عنيفاً لسفورزا .

(٢٨) كان الكونت حينذاك هو Guidi Antonio da Montefeltro ابن أنطونيو
كونت أوربينو ومونيفلترو ، وقد خلفه في عام ١٤٠٤ ، وفيما يتعلق بكلام طافور
حول معمودتيه راجع : Dennistonn: Memoirs of the Dukes of Urbino (1851),
I, pp. 38 seq.

(٢٩) أنظر ما يلي ص ١٦٢ وما بعدها .

(٣٠) عرف ملك نابلي Ladislaus بالشجاعة والمقدرة (١٣٨٦ — ١٤١٤ م)
وقد باع مدينة زارا إلى البنادقة عام ١٤٠٩ ببلغ مائة ألف أفلورنقي، ويلاحظ أن
كورفو مع بقية الجزائر الأيونية قد آلت إلى البندقية في أعقاب الحملة الصليبية
الرابعة عام ١٢٠٥ بجزء من نصيبهم في غنائم هذه الحرب وفي أثناء توزيع تركه
الإمبراطورية البيزنطية ، علماً بأن سيطرة البنادقة التامة لم تحدث إلا سنة ١٣٦٨ .

(٣١) راجع وصف الجزيرة والدير في Fabri . op. cit. I, p. 184.

(٣٢) ورد وصف مطول لمودون في M. M. Newett : Canon Pietro :

Casola's Pilgrimage (1494), Manchester, 1907, pp. 191 ff ويلاحظ أن الليرة آلت في سنة ١٢٠٤ إلى البندقية باعتبارها جزءاً من نديتها في تركة الإمبراطورية البيزنطية . وقد نجح الترك في الاستيلاء عليها عام ١٥٠٠ م .

(٣٣) Cf. W. Miller: Essays on the Latin Orient (Cambridge, 1921) pp. 281 ff.

(٣٤) آلت جزيرة إقريطش إلى البنادقة سنة ١٢٠٤ ، غير أن الأهالي لم

يرضخوا لهذه الأيولة فكانت الثورات دأمة الشبوب ضد البنادقة ، ويظهر أن

طافور يشير إلى ثورة ١٣٦٢ ، انظر عنها W. Miller : op. cit. pp. 188 seq.

(٣٥) نجح فرسان الاسبتارية أو فرسان القديس يوحنا في الاستيلاء على رودس

عام ١٣٠٩ واستحوذوا على أملاك الفرسان الداوية سنة ١٣١٢ ، ولكنهم أخرجوا

من رودس عام ١٥٢٢ م ، وسرى طافور يعود فيما بعد إلى رودس حيث يصف

انتخاب كبير الفرسان أما Collachium التي يقال إنها مشتقة من الكلمة اللاتينية

Colligere فكانت جزءاً من المدينة التي تتجمع فيها مباني الفرسان الرئيسية والتي يقم

بها الفرسان، انظر خريطة رقم ٢٢ في De Balabre : Rhodes of the Knights,

Oxford, 1908, p. 86

(٣٦) فيما يتعلق بمهاجمة الممالك لحصن قشتيل الراج بعد ذلك بوضع سنوات راجع:

H. Habashi : Egyptian Expeditions Against Castelrosso and Rhodes (A.F.A.A.S.U., 1961)

(٣٧) فيما يتعلق بهذه الناحية راجع E. S. Bates: Touring in 1600

(Lond.), 1911, p. 210, Fabri. op. cit., W. Davies . Bernard von Breydenbech & his Journey to the Holy Land.

(٣٨) عرفها ابن عبد الحق البغدادي : مرصد الاطلاع (نشر على محمد

البحاوي) ٥٩٧/٢ بأنها من قرى بيت المقدس .

(٣٩) كان أحد قواد الحملة الصليبية الأولى ونجح في الوصول إلى بيت المقدس

حيث كان انتزاعه من المسلمين على يده ، كما اختاره زملاؤه في السلاح حينذاك

أول ملك لبيت المقدس ، لكنه تخلى عن هذا اللقب تديناً ورفض أن يضع التاج

على مفرقة في مكان وضع السيد المسيح عليه السلام الشوك فيه على هامته، واكتفى بأن يسمى « بجحى القبر المقدس » .

(٤٠) على الرغم من مألوف العادة في كتابتها في العربية بالسین، وورودها على هذه الصورة في التوراة، إلا أننا آثرنا كتابتها بالصاد، حيث نص على ذلك ابن عبد الحق البغدادي في مرصد الاطلاع ٩١١/٢ وقال في شأنها « إنها بليدة قرب بيت لحم من نواحي بيت المقدس » .

(٤١) وذلك إشارة إلى قصة شك توما في قيام المسيح .

(٤٢) كانت العادة قد جرت بفتح كنيسة القبر المقدس مرتين فقط في السنة، ويبقى الحراس داخل الكنيسة حتى وصول حجاج الموسم التالي (انظر Fabri: op. cit. 428) ويتناولون طعامهم مما يعطونه من فتحات في الباب، وقد ترك لنا فابري وصفاً رائعاً لليلة قضاها في القبر المقدس. ويمكن للقارىء إذا أراد الوقوف على وصف الكنيسة والأحرام المقدسة مراجعة G. Jeffery: A Brief Description of the Holy Sepulchre (Cambridge: 1919).

(٤٣) جاء بعد هذا ما يشير إلى نص القبرية ولكن لم يرد هذا النص وكذلك الحال في القبرية على شاهد أخيه بلدوين .

(٤٤) يتفق ابن عبد الحق البغدادي (مرصد الاطلاع ٢٣٨/١) مع طافور في وصف صغر بيت لحم حيث يقول عنها « بليد قرب البيت المقدس » ثم يعقب على ذلك قائلاً « المشهور أن عيسى عليه السلام ولد به » .

(٤٥) كانت ترجمته إياه في القرن الرابع للميلاد وهي التي أقرتها الكنيسة

الرومانية وسمتها Lectio Volgata

(٤٦) نص العبارة مبارك الرب إله إسرائيل .

(٤٧) يوجد وصف لفواكه البحر الميت في Curzon : Visits to Monasteries

in the Levant (ed. by D. G. Hogarth, Oxford, 1916), p. 228.

(٤٨) جاء في تعريفها في مرصد الاطلاع ٦٣/١ أنها كلمة عبرانية : مدينة

الجبارين في النور .

(٤٩) يعني السيد الفرنسي القليل .

(٥٠) يقول ماندفيل إنه رآه من داخله ، كما وصفه المؤرخ وليم الصوري ،

والتصود بذلك مسجد عمر .

(٥١) في وصف هذا الاحتفال راجع Rohricht : Deutsche Pilgerreisen,

p. 21, & Favine: Theatre of Honour, p. 383.

(٥٢) قال مرصد الاطلاع ١٣٤٨/٣ في شأنها « قرية بينها وبين طبرية ثلاثة

عشر ميلا ، منها اشتق اسم النصارى لأن المسيح سكنها فنسب إليها » .

(٥٣) راجع في هذا الشأن A. S. Atiya : The Crusade in the Later

Middle Ages,

(٥٤) انظر ما سبق ص ١٠ حاشية رقم ٧ .

(٥٥) وتسمى Ines أو Agnes of Lusignan وهي أخت جانوس الثاني ملك

قبرص .

(٥٦) وهو جانوس الثالث بن جانوس الثاني ، وقد ولد عام ١٤١٥ م

وتولى بعد أبيه العرش سنة ١٤٣٢ ، وكان رجلاً ضعيفاً فاسداً ، وحينما وافاه الموت

عام ١٤٥٨ كان البيت الملكي في الواقع قد انقرض ، ولم يترك من الأبناء الشرعيين

سوى فتاة اسمها شارلوت خلفته على العرش ، ولكن الأمر إذ ذاك كان قد أصبح

منازعة بين البنادقة والجنوبيين في أيهما يملك الجزيرة التي استولت عليها البندقية

تماماً عام ١٤٨٩ وظلت في حوزتها مدة اثنتين وثمانين سنة ضد الأتراك العثمانيين ،

أما الكردينال فهو Hugo de Lusignan آخر جانوس الثاني .

(٥٧) يصف أحد مشاهدي العيان (Monstrelet, ch. XXXIX) قيد الأسرى

كل اثنين معاً ، وقد أركبوا الملك بدلاً .

(٥٨) يقول مونستريليه (شرحه) إن هذا الفارس اسمه Sir Galeran Savary وأنه أتى بنفسه على الملك صائحاً بالعربية « هذا هو الملك » ، ويلاحظ أن جانوس الثاني قد نهب الساحل المصري وأثار غضب السلطان المملوكي الذي غزا الجزيرة عام ١٤٢٦ م وأسر الملك واستمر أسره مدة خمسة عشر شهراً ، ثم فك أسره بعد دفع جزية كبيرة وعاد محطماً القلب حيث مات سنة ١٤٣٢ .

(٥٩) فيما يتعلق باستعمال الحمام الزاجل انظر :

Mario Esposito : Pilgrimage of Symon Semeonis (in) Geogr. Journal. Nov. 1917, p. 349; Schiltberger : Bondage and Travels (Hakluyt Society) p. 53, and Rohricht : op. cit. p. 24.

(٦٠) يعنى بذلك مصر القديمة الحالية .

(٦١) Schiltberger : Bondage and Travels, p. 51.

(٦٢) المطرية قرب القاهرة « عندها الموضع الذي فيه شجر البلسان الذي يستخرج منه الدهن وليس ذلك في موضع آخر » ، انظر مرصد الاطلاع ١٢٨٤/٣ .

(٦٣) أطال Mendville, Ch. Vii في وصف البلسم وتجارته التي يحتكرها المسلمون ليبيعه لجماعات النصارى .

(٦٤) فيما يتعلق بهذه التسمية للأهرام انظر : Esposito : The Pi'grimage of Symon Symeonis (in) Geogr. Journal. 1918, Febr., p. 87.

(٦٥) مكيبال الخروبة يبادل ٤ جالونات .

(٦٦) لقد رأى سيمونيز هو الآخر القبلة وزرافة بالقاهرة ، انظر :

Geogr. Journ., Febr., 1918, p. 86.

(٦٧) أى ستة عشر قدماً .

(٦٨) لقد شاهد كيرزون نفس الأمر لكن بعد أربعائة سنة ، انظر :

Visits to the Monasteries in the Levant, p. 98.

(٦٩) كان اللعب بالكرة من الألعاب المحببة إلى سلاطين مصر المملوكية ، وهي المعروفة الآن بالبولو .

(٧٠) كانت الرحلة إلى جبل سيناء تجربة قاسية خطيرة ، قل أن يكررها

الحاج مرة أخرى ، أما فيما يتعلق بالرحلة المتأخرين فانظر : Bates : Touring in 1600 (Lond., 1911) pp. 223, Röhricht : Deutsche Pilgerreisen, p. 23 ، ويوجد وصف رائع للدير في وقتنا الحاضر ومكتبته في : A. Mary R. Dobson : Mount Sinai, a Modern Pilgrimage (Lond.,1925). ولقد ظلت تجارة الموميات حتى القرن الثامن عشر .

(٧١) كان من البلاد التي زارها نيكولودى كونق بلاد فارس وبعض أقاليم هندستان الداخلية وجزيرة سيلان وسومطرة وجاوة ، ثم رحل إلى الصين ، فلما كان في طريق عودته سار مصاقباً لساحل الحبشة وركب البحر الأحمر حتى بلغ القاهرة حيث ماتت زوجته وأولاده وعاد إلى البندقية بعد غيبة عدة أعوام عنها ، وراح يلتمس غفران البابا له على تركه ملته ، فطلب إليه البابا أن يقص خبر رحلته على سكرتيره الخاص Poggio Bracciolini الذي كتبها باللغة اللاتينية، وقد أصدرت جمعية هاكلويت عام ١٨٥٧ ترجمتها الإنجليزية بعنوان India in the 15th Century ، على أن المقارنة بينها وبين مارواه طافور في المتن هنا تشير إلى أن مارواه نيكولودى كونق لطافور يتضمن أموراً خلت منها نسخة « بوجو » .

(٧٢) هو ملك الهند المسيحي الخرافي ، وقد وردت الإشارة إليه أول مرة في كتاب لأوتو أسقف فريزنجن سنة ١١٤٥ م ، وفي عام ١١٦٥م انتشر في أوربة خطاب قيل إنه موجه من « بريستر جون » إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل ، ويحتفي بريستر جون بعدئذ من الهند ليظهر في الحبشة ، انظر : F. Zaruche :

Der Priester Johannes, 1876-79; Yule: Cathay and the Way Thither, (Hakluyt Society).

(٧٣) لم نقف لهذه الطائفة على خبر .

(٧٤) انظر حاشية رقم ٧٢ .

(٧٥) وتعرف قته « بقمة آدم » حيث يقال إن قبره موجود بها وهي شديدة

الانحدار لا يستطيع تسلقها إلا بالسلاسل ، انظر :

C.R. Beazley : The Dawn of Modern Geography, III, pp. 187, 269, 308.

(٧٦) شاهد ابن بطوطة مثل هذا الأمر في بلاط أحد الملوك التتار ، انظر أيضاً

Yule : Marco Polo (3rd ed.) II. p 349.

(٧٧) فيما يتعلق بمعرفة طافور السابقة بقبرص انظر ص ٥٤ وما بعدها .

(٧٨) تزوج الملك جانوس الثاني مرتين إحداهما بابنة مركيز دى مونتفرات
وثانيهما بهيلين باليولوجس ابنة تيودور التي أنجب منها ابنة واحدة هي شارلوت
التي خلفته على العرش .

(٧٩) انظر ما سبق ص ١١ .

(٨٠) اختير أنطون فلوفيان الأراجوني الجنسية عام ١٤٢١ رئيساً للفرسان

الاسبتارية ومات في التاسع من أكتوبر ١٤٣٧ ، وانظر أيضاً : De Balabre

Rhodes of the Knights, p. 19.

(٨١) وقع الاختيار على « جان دى لاستيك » الذي مات يوم ١٧ أغسطس

سنة ١٤٥٤ .

(٨٢) هو Louis de Anaral y Costa الذي أرسله جون ملك البرتغال

إلى مجمع بازل ، وكان هذا الأسقف في تلك الآونة في الشرق في سفارة إلى
الإمبراطور البيزنطي ؛ كما أنه كان أحد البعوثين الذين أسروا — مع طافور —
قرب مينز كما سيرد فيما بعد في الفصل الخامس والعشرين .

(٨٣) كان هذا رسالة السيد الأعظم رئيس الفرسان الصادرة عام ١٤٤٥ م

يطلب فيها المال والرجال للوقوف ضد الاستعدادات التي أعدها السلطان جقمق
لمهاجمة الجزيرة .

(٨٤) انظر ص ١٢٤ فيما بعد .

(٨٥) ظلت جنوة تحكم خيوس من سنة ١٣٤٦ حتى ١٥٦٦ م ، وكان يشرف

على إدارتها هيئة تسمى Maona ، ويطلق على أعضائها Maonesi ، انظر في ذلك

Miller : Essays on the Latin Orient, p. 298.

(٨٦) بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ استقر الجنوية في « بيريه »

حيث فرضوا قوانينهم وولانهم وأخذوا من هناك يشرفون على تجارة البحر الأسود ،

وكان أهم مركز في « كافا » التي زارها طافور فيما بعد ، انظر ص ١٣٣ وما
بعدها من هذه الترجمة وراجع أيضاً : Heyd : Hist. du Commerce du
Levant, t. I, p 436 ويوجد وصف لميناء بيريه في Clavijo : Embassy to
Samarcaand (1403-6), pp. 47-8. هذا وقد اختفت هذه الجالية مع
الإمبراطورية ، انظر ص ١٥٤ .

(٨٧) كان هذا هو الإمبراطور الذي نفاه أخوه ويذكر طافور ص ١٣٢
أنه قابل الإمبراطور المنتصب في طرايزون .

(٨٨) غير معروف على وجه التحقيق تاريخ قيام هذه الجماعة من الفرسان ،
لكن يظهر أنه أنشأها جوان الثاني ملك قشتالة عام ١٤٢٠ لم يذب الأشراف
والأنصاف للانخراط تحت رايته ، وكان أعضاؤها يقطعون على أنفسهم العيين بالدفاع
عن للملكة ضد المسلمين ، والطاعة حتى الموت في سبيل الدين .

(٨٩) أراد الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوجس — وقد هدده
الأتراك — أن يحول المنازعات التي أثارها مؤتمر بازل لصالحه ، ولقد رحل
الإمبراطور إلى أوربة يوم ٢٤ نوفمبر ١٤٣٧ ، وكان طافور شاهد عيان لرحيله
حيث لقيه في فرارا مرة ثانية (ص ١٨٣) ، وقد رفض الشعب اليوناني الوحدة
للذهبية مع كنيسة روما، وكان موت الإمبراطور سنة ١٤٤٨ حيث سقطت القسطنطينية
في يد الأتراك بعد خمس سنوات ، راجع في هذا : Cambridge Medieval
History, IV, pp. 631 ff.

(٩٠) في سنة ١٢٠٤ قام أسطول صليبي من الفرنسيين والألمان والبنادقة
وانحرف عن وجهته الصليبية واستولى على القسطنطينية التي استردها اليونان
عام ١٢٦١ .

(٩١) سيرد وصف العباد والأعمدة فيما بعد ص ١٧٢ .

(٩٢) بعد سقوط القسطنطينية تجتمع اليونان في نيقية وقد نجح ميخائيل
باليولوجس الذي تزوج من إحدى أميرات البيت الإمبراطوري في استرداد

القسطنطينية يوم ١٥ أغسطس ١٢٦١ ووضع التاج على رأسه في كنيسة القديسة صوفيا ، انظر Cambridge Medieval History ,IV, P. 427 ff (٩٣) سمى بعدئذ قسطنطين الحادي عشر باليولوجس ، وقدمات بعد الاستيلاء على القسطنطينية .

(٩٤) كان هذا يوم ٢٤ نوفمبر ١٤٣٧ .

(٩٥) كانت طرابزون إذ ذاك عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المستقلة التي أقيمت في أعقاب الفتح اللاتيني للقسطنطينية عام ١٢٠٤م ، وكان الإمبراطور يوحنا الرابع كومنين قد اغتال أباه ، والمعتقد أن الأب ألكسيوس الرابع قد ظل على قيد الحياة حتى عام ١٤٤٦م ، طى حين أنه يستفاد من رواية طافور على أنه قد مات سنة ١٤٣٧ أوفى مستهل ١٤٣٨ ، ولذلك فإن ما ذكره Finlay: Greece, Vol .IV p. 399 يحتاج إلى مراجعة وتصحيح ، ويوافق وليم ميلر على ما جاء في طافور ، أنظر English Historical Review, 1928.p. 409 ، هذا ويلاحظ أن السلطان العثماني محمد الفاتح قد نجح في سنة ١٤٦١ في ضم طرابزون للأتراك العثمانية ، ويمكن للقارىء أن يطالع وصفها عام ١٤٠٤ في Clavigo: Embassy to Samarcand (Hakluyt) Society, p.92.

(٩٦) كانت كافا تشغل مكانة أكبر من أن تقتصر على أن تكون مركزاً للتجارة الجنوبية في الشرق ، إذا كانت هي و« غلطة » العاصمة التجارية للشرق اللاتيني ، وربما أمكن القول بأن استقرار الجنوبية هناك قد تم قبل عام ١٢٠٤م ولسكن وجود الجالية الكبيرة قد نجم عن استعادة اليونان لبلادهم عام ١٢٦١ ، ونستدل من وصف Schiltberger (حوالي عام ١٤٢٠م) على أن كافا كانت محاطة بفصيل مزدوج وبها ستة آلاف دار في الفصيل الضيق ، وأربعون ألف دار في الفصيل الأوسع ، وكانت قاعدة أبرشية بعثة تبشيرية كبرى وكان بها ستة أنواع من اللؤلؤ والمذهب، انظر: Schiltberger Bondage and Travels, Hakluyt Society. PP. 49-50; Leazley: Dawn of Modern Geography, III, PP. 371 477, II, P. 468.

(٩٧) كانت كلتنا Tana ، Ryxabaque تطلقان على بحر أزوف، أما بحر «باكو» فهو بحر قزوين .

(٩٨) قارن ذلك بما كتبه شلتبرجر (ص ٤٨) حيث يقول « إنهم يأخذون قطعة من اللحم ويقطعونها إلى شرائح ، ويضعونها تحت السرج الذي يركبون عليه ، ويأكلونها حين يحسون بالجوع ، ولكنهم يملعونها أولاً، ويظنون أنها بذلك لا تفسد لأنها تصبح جافة بسبب دفاء الحصان ، وتصبح لينة تحت السرج من جراء الركوب» .

(٩٩) كان نهر الدون واجداً من نقط البداية الكبرى للطرق التجارية إلى الصين ، انظر في ذلك G. R. Beazley : op. cit. Vol. II, pp. 455 ff.

(١٠٠) خبر هذه السفارة (١٤٠٣ - ١٤٠٦ م) وورد في ري كوزالزدي كلافيجو في ترجمة سير كلينتمس مرخام ، عام ١٨٥٩ .

(١٠١) فيما يتعلق بهذه الطائفة انظر W. R. Lethaby & H. Swainson :

Santa Sophia, 1896, PP. 19, 196 ويقول كلافيجو إن عشرة من الأغربة كانت تستطيع السير هناك (ص ٣٨) ، وهذا المكيال يعادل الواحد منه ٥١٦ لتراً .

(١٠٢) هذا في الواقع هو تمثال جستنيان الذي حطمه ساعة عام ١٤٩٢ م ، ويوجد رسم رائع له في مكتبة سراي ، وقد نقله J. Ebersolt : Constantiuople Byzantine et les Voyageurs du Levant, Paris, 1910 4. 80. ولقد نجح «بيرجيل P. Gilles» المؤلف والعالم الطبيعي الذي أرسله فرنسيس الأول ملك فرنسا عام ١٥٤٤ إلى الشرق في العثور على أجزاء من هذا التمثال ، وهي أجزاء ضخمة ، فكانت الساق تتجاوز قامة الرجل ، كما أن طول الأنف كان تسع بوصات .

(١٠٣) رأى كلافيجو (ص ٤٠٣) هذه الصورة في كنيسة القديسة ماريا ديستريا ويقول إنها شديدة الثقل حتى أنها كانت تتطلب أربعة رجال لملها فيما بينهم بواسطة حبال من الجلد انظر Embassy to Samarcand P.44. وقد تحطمت هذه الصورة حين دخل الأتراك المدينة ، إذ مزقها الإنكشارية إلى

قطع صغيرة للهو بها ؛ انظر W. H. Hutton: Constantinople (Mod. Towns Series) P.P. 263,266 ويبدو أن الصورة كانت تحفظ — بين وقت آخر — في مختلف الكنائس .

(١٠٤) الأرجح أن هذه هي كنيسة « بلاشيرن » وقد رآها أطلاقاً « جيار »

عام ١٥٤٤م انظر Ebersolt : Constantinople Byzantine et les Voyageurs du Levant, p. 81.

(١٠٥) كنيسة « المسيح ضابط السكل » Pantokrator شيدها يوحنا كومنين وزوجته إيرين التي توفيت سنة ١١٢٤ ، وهي في الواقع ثلاث كنائس بعضها داخل بعض ، أما الوسطى منها فكانت ضريح آل كومنين .

(١٠٦) يعنى بذلك الهبدروم وعمود السربنت . وقد عمد قسطنطين إلى نقل العمود من دلفي ، وكان العمود يحمل في بداية إقامته الركيزة الثلاثية الذهبية التي كرسها اليونان لأبولو بعد انتصارهم على أجزرسييس في بلاتاي Platea ، ويمكن مطالعة أسماء المدن المدونة على أسطواناتها ، أما الرؤوس الثلاثة فقد اختلفت منذ زمن بعيد ، وواحدة منها في المتحف ، أما فيما يتعلق بتاريخ العمود والنقوش فانظر Pausanias's Description of Greece, Vol. V, pp. 299 ff.

(١٠٧) لا نعرف على وجه التدقيق أى عمال يشير إليه طافور ولا القصة الموجودة في كتابات الرحالة الآخرين .

(١٠٨) من الممكن أن تكون هذه إشارة إلى الأسطورة المتعلقة بجهمات Zeuxippus التي كانت ملاصقة للقصر وللهدروم .

(١٠٩) جاء تيودوسيوس بهذه المسئلة من هليوبوليس وظلت باقية في مكانها الذي وضعت فيه .

(١١٠) لم يبق من اللباني التي كانت تؤلف القصر الإمبراطوري سوى بعض الأطلال ، ولا شك في أن الإشارة إلى المكتبة ذات أهمية خاصة وذلك لوجود نقاش كثير حول مكانها .

(١١١) ضرب الترك في عام ١٤٢٢ حصاراً حولها استمر من يونيو إلى أغسطس

لكنهم ما لبثوا أن رفعوه ، وحينذاك عقد الإمبراطور السلم لكن على شرط قيامه بدفع جزية ضخمة ، وتخليه لهم عن كثير من الأماكن الواقعة على البحر الأسود ،

انظر Cambridge Medieval History, Vol. IV, pp. 689, 80.

(١١٢) تشغل بروصة السفوح السفلى من جبل أوليمبس ميزان ، ويقال إنها تأسست بناء على إشارة من هانيبال ، وقد استولى عليها الترك عام ١٣٢٧ بعد حصار استمر عشرة أعوام وبقيت عاصمة لهم حتى انتقل مراد الأول إلى أدرنة .

(١١٣) وتعرف اليوم بأزميد ، وقد جاء في لي استرايخ : بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد) ص ١٩٠ أن العرب الجغرافيين الأوائل عرفوها باسم « نيموديا » وهي تعريب لكلمة Nicomedia ، وسماها الترك « أزنكميد » .

(١١٤) فيما يتعلق ببيره راجع ما سبق ص ١١٥ .

(١١٥) استردت سالونيك بعد كثير من الأحداث وأخذت من البنادقة

عام ١٤٣٠ ، وقد يبع سبعة آلاف من سكانها رقيقاً ، انظر : Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 690, W. Miller : Essays on the Latin Orient, 1921, pp. 279 ff.

(١١٦) انظر ما سبق ص ٣٥ .

(١١٧) كان تاريخ عودة طافور إلى البندقية هو ٢٢ مايو ١٤٣٨ .

(١١٨) يمكن للقارىء أن يستزيد عن هذا الخبر والأحداث التي أعقبته في :

Hazlitt: Venetian Republic, 1 st ed. I, p. 420 أما البابا فهو اسكندر الثالث ، وتذهب الرواية إلى أنه قدم إلى البندقية متنكراً عام ١١١٧ م ومضى إلى دير كريتيا Carita. حيث استقبلوه كقسيس بسيط أو — حسب رواية أخرى — مساعد طاه ، ويقال إن الذي عرفه هو رجل فرنسي اسمه Comodo ، ويلاحظ أنه ليس ثم أساس تاريخي لهذه القصة ، انظر :

G. Tassini : Curiosita Veneziane, 4 th. ed. Venice, 1887. p. 148

وقد حدثت هذه المعركة للبحرية يوم ٢٦ مايو ١١٧٧ ، وكان اندحار الألمان فيها نهائياً ، وتشير ثلاث لوحات من الرخام الأحمر في سقيفة باب كنيسة القديس مرقس إلى البقعة التي رُكع فيها فردريك وأنهضه البابا وقد أغرورت عيناه بدموع الفرح ومنعه قبلة السلام ، أما القصة التي يرويها طافور ويشير فيها إلى كيفية وضع البابا قدمه على رقبة الإمبراطور - وهو منبسط على الأرض - فتأخرة تاريخياً ، والصورة لا تزال موجودة في صالة الاحتفالات الكبرى بقصر الدوج .

(١١٩) من المحتمل أن تكون الجياد البروتزية الشهيرة هي التي علت أقواس النصر لتسليم نيرون ومن بعده تراجان ، وقد بعث بها قسطنطين إلى القسطنطينية حينما جاء بها الدوج داندولو إلى البندقية عام ١٢٠٤ م .

(١٢٠) بديء في إقامة الـ Campanile عام ٨٨٨ م ثم أعيد بناؤه في سق في ١١٤٨ ، ١٣٢٩ م ، وقد سقط يوم ١٤ يوليو ١٩٠٢ ثم جدد مرة أخرى .

(١٢١) شيد العمودان المصنوعان من الجرانيت عام ١١٨٠ ، وكان أحدهما يحمل أسد القديس مرقس ، والآخر أسد القديس تيودور - وليس القديس جورج - على تمساح وهو حامي الجمهورية القديم قبل وصول رفات القديس مرقس من مصر عام ٨٢٧ ، وقد ظل العمودان ملتقيين على الأرض بضعة أعوام حتى قام مهندس لباردي اسمه نيكولو برفعهما وحفظهما ، انظر Hazlit : Venetian Republic , I , p. 488 .

(١٢٢) انظر ما سبق ص ٦١ .

(١٢٣) الإشارة هنا إلى المؤامرة الخائنة التي دبرها Marino Faliero الذي اختير دوجا عام ١٣٥٤ وهو في السادسة والسبعين من عمره ، ويلاحظ أن طافور واسع الخيال في هذه الناحية ، إذ أن الدوج أعدم يوم ١٧ إبريل ١٣٢٥ ، راجع : Hazlit : op. cit. vol, III pp. 145 ff.

(١٢٤) ولد فرانشيسكو باسوني Francesco Bussone في قرية صغيرة اسمها كرمانيولا Carmagnola في إقليم تورين عام ١٣٩٠ ، وقد ثبتت عليه جريمة القيام بأعمال خائنة مع الفيكونتي وأعدم يوم ٥ مايو ١٤٣٢ .

(١٢٥) تأسست بيتا في سنة ١٣٤٦ لتلقى اللقطاء ، انظر : Taissini op. cit. p. 559.

(١٢٦) استمرت الحرب بين البندقية وميلان لمدة سنوات عدة ، ولم تتوقف إلا بموت فيليبو ماريا فيكونتي عام ١٤٤٧ ، وعلى أية حال فقد كان هو الخاسر ، إذ ثارت جنوة ، ومدت البندقية حدودها غرباً .

(١٢٧) نوع من القوارب الخفيفة ، محدودب الشكل أشبه بالسلحفاة .

(١٢٨) أصدر البابا يوجين قراراً بفض مجمع بازل واستدعى مجمعاً آخر في « فرارا » في يناير ١٤٣٨ ، ثم انتقل بعد عام واحد إلى فلورنسة ، وقد قبل الإمبراطور البيزنطي اتحاد الكنيستين اليونانية والرومانية لكن اليونان رفضوا هذا الأمر .

(١٢٩) هو نيكولو الثالث مركز فرارا الثاني عشر (١٣٨٣ - ١٤٤١) وكان إذ ذاك في الخامسة والخمسين من عمره ، ويبدو أن طافور شديد الاهتمام بمسألة السن ، أنظر ما سبق ص ٦٥ والفصل السادس والعشرين ص ٢٣٢ . وليس من اليسير معرفة الإشارة إلى الجلالون وإن كان Diego de Valera : Bronica de Espana Abreviada, Pt. IV, cap. 9 يشير إلى هذا الموضوع حيث كتب يقول « إن مؤرخى أسبانيا وفرنسا يشيرون إليها (أى إلى الهزيمة في Roncesvalles) بأنها حدثت بسبب كونت فرنسى اسمه Galalon الذى لا يزال بعض ذريته يعيشون في فرنسا ، وإذا حدث أن تناول أحدهم الطعام مع آخرين وضع الحبز مقلوباً أمامه على المائدة » . وجالالون (Galalon) هو الخائن في أغنية رولاند .

(١٣٠) يبدو أن البيئة للعاصرة لهذه المسألة قد فقدت ، ومن ثم لم يعد من اليسير التفرقة بين الحقيقة والخيال ، ولقد ماتت زوجة نيكولو الأولى عام ١٣٩٧م ، ثم عاد فتزوج مرة ثانية سنة ١٤١٨ م من Parisina Malatesta ، وقد أصبح Ugo ابن زوجها عشيقاً لها ، وقد أمسك الخاطان ليلة ٢٠ مايو ١٤٢٥ وألقى بهما في السجن وأعدما في اليوم التالي ، وقد أصبح للر كيز كثير من الأبناء غير الشرعيين بعد موت « باريزينا » ، ثم كانت زوجته الثالثة Ricciarda de Saluzzio سنة ١٤٣١ ، وقد اشترط عليها أن يخلفه من بعده ابنه « ليونيللو Leone llo » للولود عام ١٤٠٧ مها رزق منها من صبية ، وقد أعلن شرعيته منه البابا مارتن الخامس ، أنظر

Gardner : Dukes and Poets of Ferrara, 1904, PP. 37 ff.

- (١٣١) ربما كانت الإشارة هنا يقصد بها أنها كانت ذات قدمين كبيرين .
- (١٣٢) إلتقى طافور بنيكولا بتشينينو من قبل ، أنظر ص ٣٣ ، حاشية رقم ١١ .
- (١٣٣) كان فيليبو ماريا فيكونتي بن جيان جاليزو G. Galeazzo . وقد تولى العرش بعد موت أخيه عام ١٤١٢م وكان آخر حكام بيت فيكونتي الطغاة وظل يحكم مدة خمس وثلاثين سنة ، والمعروف عنه أنه كان ذا طلمة بالغة القبح وأنه كان شديد الإحساس بهذا العيب ، ومن ثم فإن قلما كان يظهر للناس ، وأخذ نفسه بالعيش في حجرات سرية ، وكان إذا خرج أبى أن يحويه الناس في الشوارع .
- (١٣٤) لم يكن لفيليبو ماريا ولي عهد يخلفه ، أما ابنته بيانكا Bianca فقد تزوجت ١٤٤١ من فرنسكو سفورزا الذى اعتلى عرش الدوقية بعد فترة قصيرة من الحكم الجمهورى سنة ١٤٥٠ .
- (١٣٥) هو قائد جماعة مرتزقة وقد تزوج بأرملة فيليبو ماريا فيكونتي .
- (١٣٦) إذا كانت هذه هى لوسرن فقد اختلط الأمر على طافور .
- (١٣٧) عبر آدم دى أوسك هذا المر في سنة ١٤٠٢ حيث « سحب في عربة يجرها ثور ، وقد قد أنهكه التعب بصورة تجعله نصف ميت من جراء البرد وعينين مصبوبتين ، حتى لا أرى أخطار المر » راجع Chronicle, ed. by Sir E. M. Thompson, 2 nd., P. 242.
- (١٣٨) هناك وصف لبازيل في هذا الوقت وضعه ايناس سيلفيا Aeneas Sylvaينس الذى عرف فيما بعد باسم البابا بيوس الثانى ، وهو الوصف المترجم في Chreighton : History of the Papacy, new ed. II, P. 199 . هذا وقد عقد المجلس عام ١٤٣١ واستمر منعقدا حتى سنة ١٤٤٩ .
- (١٣٩) دون چوان دى سيلفا أول كونت لسفونيتا ألفريز الأكبر للملك جوان الثانى ، وقد كان ألفريز الأكبر هو الضابط الذى كان موكولا إليه حراسة علم المدينة بمناسبة إحدي الزيارات الملكية .
- (١٤٠) من الأرجح أنها ماريا شتين التى كانت سابقاً أحد الأديرة البندكتانية وللحق بها كنيسة حج شهيرة .
- (١٤١) أنظر ما سبق ص ١٥٦ .

(١٤٢) شيدت القلعة القديمة عام ١٣٧٦ في رينز Rhense قرب كوبلنز ، وقد حل محلها بناء حديث وجرى فيها آخر انتخاب إمبراطورى عام ١٤٠٠ م .

(١٤٣) ربما كان يعنى بذلك جوهانسبرج لكنها تبعد عن كوبلنز عدة أميال كثيرة .

(١٤٤) تم انتخاب ديتريش الثانى فون مورز عام ١٤١٤ ومات سنة ١٤٦٤ وهو واحد من أقوى أمراء الكنيسة ، وعلى الرغم من إشارة طافور هذه إلا أن فون مورز اتخذ خطوات عنيفة فى العمل على إصلاح سير رجال الدين .

(١٤٥) هو أدولف الثانى أول دوق لكوفوس ١٣٧١ — ١٤٤٨ ، وكانت زوجته الثانية « ماريا » أخت فيليب الطيب .

(١٤٦) وكل إلى أرنولد ديجمونت عام ١٤٢٣ بدوقية جيلدرز Guelders وتستقطن Zutphen .

(١٤٧) لا يمكن أن يكون المقصود بها Lille ، ولا بد من أن طافور يشير إلى مكان صغير مجاور لبوا — لى — ديك Bois-le-duc وخلق بين الأسمين .

(١٤٨) بقى فيليب الطيب الذى امتد حكمه من ١٤١٩ حتى ١٤٦٧ م ، وكان قد تزوج عام ١٤٣٠ بإيزابلا ابنة خوان الأول ملك البرتغال وفيليب دى لانكستر .

(١٤٩) جون دى لانكستر هو الابن غير الشرعى لفالرام الثالث Waleram دوق لوكسمبرج ، وقد ولد سنة ١٣٩٠ م واعترف بينوته الشرعية سنة ١٤٣٦ ومات عام ١٤٦٦ م ، وكان يعد واحداً من أعظم جند يومه ، وقد أسر مرتين فى بعض المعارك ، وأنعم عليه بوسام طائفة القطيع الذهبى عام ١٤٣٣ م ولكن ليس بالطريقة التى يروها طافور فى الرحلة ، إذ يبدو أنه يخلط بين جان دى لاريمويل Trimowille وسير دى مونتيج الذى اتهم بالجبن وأخرج من الطائفة عام ١٤٣١ م .

(١٥٠) هو الذى أصبح فيما بعد يعرف باسم « شارل الأصلع » المولود سنة ١٤٣٣ والمتوفى عام ١٤٧٧ ، وكان قد تزوج فى سنة ١٤٦٨ بـ جريت دى يورك أخت إدوارد الرابع .

(١٥١) فيما يتعلق بروجس راجع Malcolm Letts: Bruges and Sluys (London. 1926) ولقد كانت هذه المدينة وقت زيارة طافور لا تزال تعتبر سوقاً من أكبر الأسواق التجارية في أوربة ، أنظر أيضا Pirenne : Economic & Social History of Medieval Europe, chs. 5&6.

cf. M. Letts : op cit. (١٥٢)

(١٥٣) وكان موقعها عند الجانب الشرقى من القصر الكبير ، ولكنها تهدمت سنة ١٧٨٧ م .

(١٥٤) يشير طافور إلى ثورة ١٤٣٧ حيث هاجم الثوار الدوق عند بوابة « بوفرى » وكادوا أن يقتلوه وكانت نجاحته إحدى المعجزات ، ومن ثم كانت تقمته عليها شديدة فعاود قتالها في العام التالي واحتلها .

(١٥٥) كانت سلايز هي ميناء بروجس البحرى في ذلك الحين ولكنها أضحت اليوم مدينة في الداخل .

(١٥٦) ثارت « غنت » سنة ١٤٥٢ ، ويرجع الفضل في مقاومتها للحصار للضروب عليها إلى استحكاماتها العظيمة ، غير أن هزيمة « جافيرا » يوم ٢٣ يوليو ١٤٥٣ أدت إلى خضوع الثوار ، وفي يوم ٣٠ يوليو ركع الألمان من أهلها للدوق فليب ملتسبين عنقه ، وفرض عليها أقسى الشروط المذلة .

(١٥٧) قام الإمبراطور سيجسمند عام ١٤١٥ بمنح « انتورب » حق عقد سوقين في كل عام ، ومنذ ذلك الحين أخذت المدينة في الازدهار والرخاء بصورة لم تشاهدها من قبل ، لكنها لم تستطع أن تكون مركز تجارة الشمال إلا منذ بداية القرن السادس عشر إذ كانت « بروجس » لا تزال منافساً خطيراً لها ، أنظر في ذلك

Pirenne : Hist. de Belgique, II P. 440 ; J. Wegg : Antwerp 1477-1659. (1916).

(١٥٨) أنظر ما سبق ص ١٠٩-١١٠ .

(١٥٩) لا بد من أن يكون الدوق الذى يقصده طافور في الآن هو Ingoldstadt ابن فردريك دوق بافاريا المسمى لاندشوت .

(١٦٠) انعقد مجمع كونستانس عام ١٤١٤ وهو الذي قرر حرق « جون

هس » انظر في ذلك J. H. Wylie The Council of Constance to the Death of John Huss, (Lond.; 1900) .

(١٦١) هو غير John de Turquemada المحقق في ديوان التفتيش، ولكنه من رجال الدين وقد مات سنة ١٤٦٨ ، كما أنه أحد رسل البابا الذين أوفداهم لحضور المجمع المنعقد في بازل .

(١٦٢) ينتمي كاسبر شليك Kaspar Schlick إلى إحدى الأسرات الشريفة في فرانكونيا ، وكان قد التحق بخدمة الإمبراطور سيجسمند كاتباً في ديوان مراسلاته ، ثم ما لبث أن أصبح صديق الإمبراطور وموضع ثقته بصورة جعلته يقدق عليه الأموال ومظاهر الشرف ، وقد ظل يشغل منصب المستشارية زمن « ألبرت » الثاني وفرديريك الثالث .

(١٦٣) من هنا حتى عدة صفحات تالية يمكن مراجعة رحلات « يوحنا

بوتسباخ J. Butzbach انظر في ذلك M. Letts (in) English Historical Rev. January, 1917.

Cf. Eng. Hist. Rev. Jan. 1917, p. 29. (١٦٤)

(١٦٥) هو فرديريك الثاني حليف الإمبراطور سيجسمند

(١٦٦) كان ألبرت دى استريا زوج ابنة الإمبراطور سيجسموند ، وقد أصبح ملك الرومان عام ١٤٣٧ ، ومات وهو في محاربه الترك سنة ١٤٣٩ .

(١٦٧) في سنة ١٤٢٠ غزا البنادقة جميع نواحي « فريولي » ومدوا حدودهم ناحية الشمال الغربي إلى الجبال .

(١٦٨) لم يكن هناك بطبيعة الحال زواج بملك بولنדה الذي كان إذ ذاك صيياً صغيراً ، لكن حينما كان سيجسموند في مرضه الأخير أخذت الإمبراطورة في التأمر ضده فرتبت زواجها من ملك بولنדה بمد موت الإمبراطور ، كما رتبت

حصولها على تيجان بوهيميا وبولندا والمجر ، وكانت الإمبراطورة إذ ذاك في الخامسة والأربعين من عمرها ، غير أن المؤامرة اكتشفت وألقيت الإمبراطورة في السجن الذي ظلت حبسية فيه حتى ردت إليها حريتها ولكنها ما لبثت أن ماتت سنة ١٤٥٧م ،

انظر في ذلك : J. Aschbach : Geschichte Kaiser Sigismunds, Hamburg. 1845. Vol. IV. pp. 391. 395.

(١٦٩) كان فلاديسلاوس الثالث Wladislaus (١٤٣٤ — ١٤٤٤) لا يزال طفلا في التاسعة من عمره حينما أصبح ملكا ثم وافاه الموت وهو في العشرين في معركة « فارنا » حيث كان يحارب الترك .

(١٧٠) يوجد منظر رائع لفينا عام ١٤٨٩ وارد في J. Schwerdfeger Vienna Gloriosa, Vienna, 1923. p. 26.

(١٧١) كانت الإمبراطورة إليزابيث سيدة ذات شجاعة كبيرة وتصميم قوى ، وقد مات زوجها عنها قبل ولادة ابنها حيث دبرت سرقة تاج المجر المقدس ووضعها على رأس الطفل الرضيع ، وتوجد مذكرات وصفتها هيلين كوتاتز — التي اختلفت التاج — في المكتبة الإمبراطورية بفينا (تحت رقم ٢٩٢٠) ، وقد طبعاها س. اندليخر S. Endlicher عام ١٨٤٦ وكانت موضع أحد بحوث Gustav Freytag: Bilder aus der deutschen Vergangenheit (von Mittelalter Zu Neuzeit. ch. x). ويوجد وصف رائع للطفل من حيث « إنه كان في تنويجه قليل من البهجة ، وكان يبكي بصوت عال » .

(١٧٢) هو فردريك الثالث (١٤٤٠ — ١٤٩٣) الذي يعتبر أضعف من خلفوا

أوتو العظيم ، أما فيما يتعلق بمخلقه فراجع Stubbs : Lectures on Medieval and Modern History, p. 887 هذا وقد تزوج ابنه مكسميليان من ماري البرجنديّة .

(١٧٣) أنظر ما سبق ص ٢٣٠ .

(١٧٤) شيد بيترو كوزو الصالة القائمة في قصر البلدية بين عامي ١١٧٢ ، ١٢١٩ ،

وقد زينت الجدران بالألحمة لوحة فنية من إبداع جيوفاني ميرتو وآخرين
بعد سنة ١٤٢٠ .

(١٧٥) هو بطرس أبانو (١٢٥٠ — ١٣١٦) الفيلسوف والعالم الطبيعي
الإيطالي ، وقد مات ميتة طبيعية وإن كان قد حوكم أمام محاكم التفتيش مرتين
بتهمة ممارسة السحر ، وكانت وفاته قبل الفراغ من محاكمته الثانية ومن ثم صنعوا
دمية تمثله وأحرقوها .

(١٧٦) في يناير ١٤٣٩ قرر البابا نقل «المجمع» إلى فلورنسة ، وبدأ رحلته في
اليوم السادس عشر من يناير وبذلك يمكن تحديد تاريخ وصول طافور إلى
فرارا ، انظر : Creighton : History of the Papacy, new ed. II. p.p 340 ff.
وإنه لأمر عجيب كيف رأى طافور كل ما يصفه ثم وصل بعد ذلك إلى فرارا بعد
خمس وعشرين يوماً من وصوله إلى بريسلاو ، ذلك أن الرحلة تستغرق اثني عشر
يوماً (انظر ص ٢٣٦ س ٢١ من هذه الترجمة العربية) .

(١٧٧) ورد وصف هذا الحفل الفريد في Hazlitt : Venetian Republic, vol. IV, pp. 141 ff.
فقد حمل أسطول مؤلف من خمس وعشرين سفينة وستة
أغربة عبر جبال الأب في التيرول وذلك في عربات يجرها الرجال والثيران حتى داخل
Lago di San Andrea ومن هناك عبر جبل « بالدو » إلى « لاجودي جاروا »
وكانت المسافة التي قطعت تبلغ مائتي ميل ، وقدرت التكاليف بخمسة عشر ألف
دوكات أو أكثر، وقد أزل الأسطول بأجمعه في فبراير ١٤٣٩ ؛ ومن البين أن
ظافور شاهد نقل واحد من السفن الأخيرة .

(١٧٨) فيما يتعلق ببيتشينو راجع ما سبق ص ١٣ .

(١٧٩) ليس من السهل تنهيم ما يريده ظافور هنا ، ذلك أن اليازة شاركوا
في الحرب الصليبية الأولى وبرهنوا على حماسهم لها وشجاعتهم في الاستيلاء على
بيت المقدس وقد أدى ذلك إلى حصولهم على كثير من الامتيازات التجارية ، وربما

كانت الاشارة في المتن راجعة إلى واحد من تلك الاضطرابات التي حاقت بالمدينة المنكودة الطالع في القرن الثالث عشر ، وقد بيعت يزا إلى فلورنسة في سنة ١٤٠٥ .

(١٨٠) انظر ماسبق ص ١٠ .

(١٨١) يشير طافور إلى ظاهرة فذة على بعد ميل ونصف ميل من «بيترا مالا» عند سفح جبل «دى فو» المعروف باسم «إى فوكى I Fouchi» وهو محتوى على خروج غازات غير حارقة أشبه ما تكون بمظهر بركانى ، وهذه النيران تكون على بعد قدم من سطح الأرض ، وأحسن ما تظهر بوضوح في الليل .

(١٨٢) هو أحد الأديرة البازيلية ، أسسه روجر الأول ثم نقل من هناك حينما أعاد شارل الخامس بناء قلعة «سان سلفاتور» .

(١٨٣) لا تزال الصور والرسوم تمثل روعة الكنيسة وتجعلها من أجمل كنائس العصور الوسطى .

(١٨٤) لا تزال «ترابانى» تعد المركز الرئيسى لتجارة المرجان الصقىلى .

كشاف أجدى

بالأعلام والأماكن الواردة في هذه الترجمة العربية (*)

(*) قام بعمل هذا الكشاف زميل الدكتور اسحاق تاوضروس عبيد المدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، فله مني خالص الشكر .

obeikandi.com

استامب : ٢٠٧
 استبان دوريا : ٤
 استيفان الان : ١١٩
 اسرائيل : ٨١
 اسكلاثونيا (دلاشيا) : ٣٥ ، ٣٦ ،
 ١٥٩
 اسكاما : ١١٦ ، ١٢٣
 اسكندرية : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ،
 ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ٢١٣
 اسطفان (القديس) : ٤٦
 آسيوس : ٣٠ ، ٣١
 اشيلية : ٤ ، ١١ ، ١٦ ، ٥٧ ، ٦٤ ،
 ٧١ ، ٩٠ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٧٢ ،
 ٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣
 أصيلة : ٤
 افتنين : ٢٠ ، ١٨٠
 اكتافوس : ٢٥
 اكوليا : ٢٤١
 ألب : ١٣ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٢٤ ،
 ٢٤١
 ألبا : ١٢٠
 ألبا : ٤١ ، ٥٩ ، ١٠٠
 ألبانيا : ٣٥ ، ٣٦ ، ١٥٩
 ألبرت (إمبراطور) : ٢٢٩ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠
 الفونسو فرناندى ميا : ٢ ، ١١٩ ،
 ١٣٧
 الفون دى ماتا : ١١٥
 الفيريز : ١٩٣

أبسالوم : ٤٨
 أبوليا : ٣٦ ، ٢٥١
 إتنا : ٢٥٤
 أتوييا : ٩٠
 أجانا (القديسة) : ٢٠
 أجامنون : ٣٨
 أجير : ٢٢٦
 أخايا : ٣٦ ، ١٢١
 أخيل : ١٠٣ ، ١١٤
 أرجل : ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٥٥
 أرمينيا : ٥٤ ، ١٠٤ ، ١٣٤
 آدم (قبر) : ٥١
 أدريانوبل : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٦
 آراس : ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨
 أرينودا مالانيسستا : ٣١ ، ٣٢ ، ٢٤٥ ،
 ٢٥١
 أرجنتينا : ١٩٧
 أرسولا (القديسة) : ٢٠٣
 أرغونة : ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ٣٩ ،
 ١٠٢ ، ٢٣٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
 أريس : ٢٢٥
 أريعا : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠
 أزوف : ١١ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦
 اسبارتيل : ٤
 اسبانيا : ٣١ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
 ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ،
 ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣
 الإسبترارية : ٣٩ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩

بالمراس (خليج) : ١٥٩
 باتروكولوس : ١١٤
 باتيندورف : ٢٣٠ ، ٢٢٥
 بائي : ٢٥٢
 باثينيا : ٥١
 بارما : ١٨٨ ، ١٨٧
 بارزو : ١٦٢ ، ٣٥
 باريس : ٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٦
 بازيل : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٢
 باسك : ٢
 باسيل (القدس) : ١٤٦ ، ١٥٧
 باسينو اليتاوتو : ١١
 بادوا : ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤
 باكوه (بحر) : ١٣٥
 بالرمو : ٢٥٣ ، ٢٥٤
 البحر الأسود : ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٢
 ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢١٣
 ٢٢٥
 البحر الميت : ٤٩
 بدرازا : ٢٦
 بدرو (دوق) : ١٠٢
 بدرو (كونت) : ١١٩
 برابانت : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩
 براج : ٢٢٧
 براسادا : ٢٧
 براميدا (ميناء) : ٤
 برانديبرج : ٢٣٠

المانيا : ١٠٢ ، ١٥٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ،
 ٢٢٦
 المنيان (سور) : ٥
 الميرا : ٧
 أنا (القديسة) : ٤٨
 انتورب : ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩
 أنتينيمور : ٢٤٣
 انجلترا : ٢١١
 اندلس : ١٣٧
 انطاكية : ٥٤
 انطوان دي فلوقيان : ٣٩ ، ١٠٥
 انطونيوس دي بادوا (القدس) :
 ٢٤٢ ، ٤٩
 انسكونا : ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٥١
 اينس : ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠١ ، ١٠٣
 اوروس (جزيرة) : ١٥٨
 اوغسطوس : ٢٥
 اوفرن : ١٠٧
 اولم (اولوس) : ٢٢٥
 ايشيا : ٧
 ايطاليا : ٧٨ ، ٨٨ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ،
 ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٩٢ ، ٢٤١
 ايشونا (ميناء) : ١٠٩
 ايليا (الني) : ٤٧
 ايليام : ١١٢
 بابليون : ٦١ ، ٧٣ ، ٧٤

بطرس المصنف (كنيسة) : ٢٧
 بطرس (القديس) : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧
 ٤٨ ، ١٨٩
 بطرس (كنيسة القديس) : ١٩
 ٢٠ ، ٢١
 بطرس الرندي : ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤
 ٩٥ ، ٩٦
 بلاطس : ٤٦
 بلانكو : ٢٥٤
 بلجرينو : ٢٥٣
 بلد الوليد : ١٨٥
 بلدوين (قبر) : ٤٦
 بنتيكاترو (دير المسيح ضابط الكل) :
 ١٤٦
 البندقية : ١٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧
 ٩٣ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١٥٩ ، ١٦١
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠
 ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨
 ١٨١ ، ١٨٧ ، ٢١١ ، ٢١٧
 ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣
 ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
 برنارد (دير القديس) : ٢٦
 بو (نهر) : ١٥ ، ١٨١ ، ١٨٢
 ١٨٥ ، ١٨٧

بروسا : ١٦٣ ، ١٦٦
 البرتغال : ١٠٢ ، ١١٠
 برتوفينيري : ١٢
 برجنديا : ١٨٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
 ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧
 ٢١٩ ، ٢٣٠
 برسلاف : ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
 ٢٣٦
 البسفور : ١٤٧ ، ١٥٥
 برشاونة : ٧
 برشيا : ٢٤٦
 بريكو (قائد) : ٣٠
 برنديزي : ٢٥١
 برونتوس : ٢٦
 بروجس : ١٨١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
 ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤
 ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨
 بروسة : ١٥٤
 بروسيا : ٢٣١
 بروفانس : ٧ ، ١١١
 بروكل : ٢٠٥ ، ٢٠٩
 بريسترجون : ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣
 ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
 بستويا : ١٣ ، ٢٤٩
 بشكنس : ١١٠
 بطرس أبانوا (الساحر) : ٢٤٢

بيروت: ٧٨، ٥٣، ٤٢
 يروجا: ٣٠
 بيريه: ١٠، ١١٥، ١٤١، ١٥١
 ١٥٤
 بيزا: ١٢، ١٣، ١٧، ٢٤٨، ٢٤٩
 بيزارو: ٢٥١
 بيكاردى: ٢١٥
 تابور (قلعة): ٢٢٧
 تانا (بحر): ١٣٥
 تانيه (نهر): ١٣٦
 التار: ١٢٥، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦
 ١٣٨، ١٤٠، ١٥٢
 تراجان (امبراطور): ٢٦
 تريان (بوابة): ٢٣
 تركيا: ١٠٣، ١١٢، ١٢٥، ١٣٠
 ١٣٧، ١٤٤، ١٤٧، ١٥٤
 تريفيو: ٢٤١
 تريمويل: ٢٠٦
 تنيديوس (جزيرة): ١١٢، ١١٣
 ١٥٦
 توردو دل كامبو: ١٧٢
 تورنو (برج): ٢
 توزول: ٢٣٣
 توما (القديس): ٩٠، ٩١
 تونس: ٢٥٤، ٢٥٥
 التير: ١٧، ١٩

بواتيلو: ١٨٣
 بوا — لى — ديك: ٢٠٤، ٢١٩
 بودا: ٢٣٩
 بورتو فينيرى: ١٣
 بولاك: ١١٠
 بولص (دير القديس): ٢٧
 بولص (جسد القديس): ٢١
 بولص (رأس القديس): ٢٣
 بولندة: ٨٨، ١٣٦، ٢٢٧، ٢٢٨
 ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٨
 بولونيا: ١٣، ١٤، ١٥، ١٧
 ١٨٨، ٢٥٠
 بوهميا: ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧
 ٢٣١، ٢٣٦
 بياتشزرا: ١٨٨
 بيت المقدس: ١٤، ١٦، ١٧، ٢١
 ٢٦، ٣١، ٣٣، ٣٦، ٣٩، ٤٣
 ٤٦، ٤٨، ٥١، ٦٥، ٩٠
 ١٠٠، ١٤٤، ١٥٢، ١٦٢
 ١٦٣، ١٧١، ١٨٣، ١٨٦
 ٢٠٦، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٤٠
 ٢٤٨، ٢٤٩
 بيت لحم: ٤٧، ٤٨
 بيترا سانتا: ١٢
 بيرجوس: ١٢٨، ١٩٣، ١٩٩
 ٢١٧، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٣
 بيرو بارفادى كامبوس: ١٦٢، ١٦٣

جوان دی موریللو : ۲۱۸
 جوان کارو : ۱۱۵ ، ۱۳۰
 جورج (القديس) : ۱۷۲ ، ۱۷۶
 جورج (ديرسات) : ۴۲
 جورج فونيروك : ۲۳۸
 الجبلجة (جبل) : ۴۵
 جليتو : ۲۲
 الجليل : ۵۳
 جنوة : ۴ ، ۴۵ ، ۸ ، ۹ ، ۱۰ ، ۱۲ ،
 ۵۴ ، ۱۰۹ ، ۱۵۵ ، ۱۵۹ ، ۲۳۰
 ۲۴۹
 جنيف : ۲۱۸
 جويو : ۳۱
 جوتير كيسارا : ۱۶۲ ، ۱۶۳
 جوتير كويكسادا : ۲۰۶
 جودفري دي بويون : ۴۲ ، ۴۳ ، ۴۶
 جون كليغز : ۲۰۷
 جيان : ۲۲۶
 جيبو : ۳۲
 جيبو شابات : ۴۶
 جيروم (القديس) : ۲۷ ، ۴۷ ،
 ۱۶۰
 جيلدرز : ۲۰۴ ، ۲۱۹
 جيمس الصغير : ۴۸
 جيمس الكبير : ۴۸

ئيتان (جزيرة) : ۷
 تيمس ليفيس (المؤرخ) : ۲۴۲
 تيرادي لا فورد : ۲۵۱
 تيرى : ۳۰
 تيمور لك : ۱۳۷ ، ۷۹
 ثابور (جبل) : ۵۱
 ترناديلا : ۵۶
 جالك دي لابن : ۲۱۷
 جاللون : ۱۸۵
 جاليولى : ۱۱۴
 جانوس : ۱۰ ، ۵۴ ، ۵۵ ، ۱۰۳
 جايوس ماريوس : ۲۹
 جبر الفار : ۶
 الجبل الأسود : ۵۴
 جبل طارق : ۳ ، ۴
 الجراكسة : ۱۳۴
 جرانديلا دي الكوديا : ۱۸۷
 جرجنتي : ۲۵۴
 جرجورى (بابا) : ۱۸ ، ۱۹ ، ۲۷
 جوان (ملك) : ۱۴ ، ۲۰۵ ، ۲۳۳ ،
 ۲۵۴
 جوان الإثلي : ۱۱۶
 جوان دي توركيادا : ۲۲۵
 جوان دي سيموفيا : ۲۲۵

دون يرو روزکافور : ۱۲۰
 دون جوان : ۲۲۹ ، ۱۱۵
 دون خوان : ۲
 دون ستيقن : ۲۳۳ ، ۲۲۱
 دون سانت بول : ۲۰۷ ، ۲۰۵ ،
 ۲۰۸
 دون فادريك : ۲۳۳
 دون فرنانت : ۱۲۰
 دون فرناندورى جيفارا : ۲۳۸
 دون لويىس دى قزمان : ۱۶ ، ۱۴
 ديجو ثينوديو : ۵۹
 دى كوثى : ۹۳
 دى لوس دوتسيوس : ۲۲۴
 ديمترى (القديس) : ۱۴۷
 راجوزة : ۱۵۹ ، ۳۵
 رأس ييفانى : ۱۰۳
 رافنا : ۲۵۱ ، ۳۳
 رامة : ۴۲
 الراين : ۲۰۴ ، ۲۰۱ ، ۱۹۸ ، ۱۹۶
 ۲۲۲
 زائيلاند : ۲۳۳
 رشيد : ۹۹
 الرملة : ۵۳
 روان : ۲۱۶
 رودس : ۱۰۱ ، ۹۴ ، ۴۰ ، ۳۹
 ۱۰۹ ، ۱۰۴ ، ۱۰۳ ، ۱۰۲

حليم : ۶۵
 حواء (قبر) : ۵۱
 خوان دى انجلو : ۱۶۳
 خوان (الملك) : ۵۵
 خيرو نيمو دوريا : ۴
 خيرو نيمو دى فولتاخو : ۴
 خيوس (جزيرة) : ۱۰ ، ۱۰۹ ،
 ۲۲۰ ، ۱۱۱ ، ۱۱۰
 الدانوب : ۲۳۹ ، ۲۳۷ ، ۲۲۵
 داود (الملك) : ۴۸
 داود (قلعة الملك) : ۴۳
 دراجس : ۱۲۵ ، ۱۲۶ ، ۱۳۰ ،
 ۱۴۱
 الدرديليل (مضيق) : ۱۱۳ ، ۱۱۴ ،
 ۱۵۵
 دلاشيا : ۱۶۲ ، ۱۶۰ ، ۱۵۹
 دمشق : ۸۱ ، ۵۳ ، ۴۲
 دمياط : ۹۰ ، ۷۰ ، ۶۳ ، ۶۰ ، ۵۹ ،
 ۱۰۰ ، ۹۹ ، ۹۴
 دواداره : ۶۸
 دومينجوفنت : ۱۸۱
 دومنيكان : ۲۱۸
 دوميليكو (دير) : ۱۴
 الدون (نهر) : ۱۳۷ ، ۱۳۶
 دون استيفان لان : ۱۲۰
 دون بريلان : ۱۲۰

سانت مارتا (كنيسة) : ٩٦ ، ٩٢
 سانتا ماريا (راس) : ١٥٦ ، ١١٣
 سانتا ماريا ارا كولى (كنيسة) : ٢٦
 سانتا ماريا ماجورى (كنيسة) : ٢٧
 سانتا ماريا نونفا (دير) : ٢٦
 سان لوكار : ٤ ، ٣ ، ١
 سبارتيفنتو (راس) : ٢٥١ ، ٣٥
 سيالاتو : ١٦٢ ، ١٦٠
 سبته : ٦ ، ٥ ، ٤
 سبوليتو : ٣٠
 سبيزيا : ١٢
 ستاليا : ٤١
 ستانقان (دير) : ٣٧
 سترا سبورج : ٢٣٧ ، ٢٢٢ ، ١٩٧
 سترمبولي : ٢٥٣
 ستري لمانت : ١٢
 سقيفن : ٢٢٠
 سجموند : ٢٢٦ ، ١٦٣ ، ٢٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٢
 سدوم وعمورة : ٤٩ ، ٤٣
 سردينيا : ٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٤٨ ، ٧
 سرقوسة : ٢٥٤
 سرينا : ١٠٣
 سفورزا : ٣٠

. ١٧٥ ، ١٣٠ ، ١١١ ، ١١٠
 روزة (ضمان القديسة) : ٣٠
 الروس : ١٣٤
 روسيا : ١٥٢ ، ١٣٦
 رومانيا : ١٥٦
 روما : ٢٦ ، ٢٤ ، ٢٢ ، ١٨ ، ١٧
 ١٦٨ ، ١٦٦ ، ١٤٨ ، ٥٦
 رومولوس (قبر) : ٢٧
 رييجو : ٢٥٢
 ريموس (قبر) : ٢٧
 رييفي : ٢٥١ ، ٣٣ ، ٣٢
 زارا : ٣٥
 زكريا (القديس) : ٤٧
 ساينزا (جزيرة) : ٣٧
 ساناليا (خليج) : ١٠٣
 سالوبرينا : ٧
 سالونيسكا : ١٥٧ ، ١٥٦
 سافونا : ٨
 سافوي : ١٠٢
 سالوست : ٢٩
 ساموس (جزيرة) : ١٠٩
 سامو تراس : ١٣١
 سان بدير : ٢٢٤ ، ١٩٤ ، ١٩٣
 سان مستو (كردينال) : ٢٢٥
 سان كروزو (كردينال) : ٢٢٥
 سان لورنزو : ١٠

سليزيا : ٢٣٤ ، ٢٢٩ ، ٢٢٧
سيناء : ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٧٤
٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢
السينيت (مجلس) : ٢٩
شافهوزن : ١٩٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤
الشام : ١٦٤ ، ١٧٤
شايين : ٢٠٧
شرلمان : ١٥٢ ، ٢٢٦
ششونة (يهود) : ٨١
شيوجيا : ١٨١
صايم : ٦٥
صقلية : ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
صنوب : ١٣٠
صوفيا (القديسة) : ١١٤ ، ١٤٢ ،
١٤٦
صهيون (جبل) : ٤٢ ، ٤٣
صور : ٥٣
طرايبزون : ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦
الطرف الأغر : ١
طروادة : ١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤
١٣٩ ، ١٥٦ ، ١٩٤ ، ٢٤٣
طريق الآلام : ٤٦
طليطلة : ١١٩ ، ١٢٠ ، ٢٢٦
طنجة : ٤

سكسونيا : ٢٢٧
سلامسكا : ٥٩
سلفستر (بابا) : ٢٣
سلفستر موروديني : ١٦
سلمبريا : ١١٤
سلويز : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥
سلويس : ٢٠٩ ، ٢١٠
سليان (معبد) : ٤٦ ، ٥١
سنت أنجلو (حصن القديس) :
١٩ ، ٢٠
سنت باسيل : ٣٧
سنت بدرو (قلعة) : ١٠٩
سنت جوثار (عمر) : ١٩١ ، ١٩٢
سنت كاترين (القديسة) : ٧٦ ،
٧٧ ، ٨٢ (الدير) : ٥٢ ، ٧٠ ،
٧٥ ، ٩٩
سنت كروس : ٢٦
سنت لازار : ١٩٧
سنتوريا : ٤٤
سنتياجو : ١٩٩ ، ٢٠٩
سوريا : ١٥٥
سوفينت : ١٠٩
سبتيرا (جزيرة) : ٣٨
سيچوفنا : ٥٦
سيزيا : ١٣
سيلبريا : ١٥٥
سيلات : ٨٤

فرسان القديس يوحنا (انظر :
الاستبارة)
فرعون : ٨١
فرناندو (ملك أراجون) : ٢٢٤
فرناندو دي أنجلو : ١٦٣
فرنسا : ١٨٨ ، ١٦١ ، ١٨٥ ، ٢١٦ ،
٢٤٨
فرنسيس (القديس) : ١٣٠ ، ٢١٣ ، ١٣٣
٢١٨
الفرنسكان : ٤٤ ، ٤٦
فرنند تيريزي أيللا : ٢٢٤
فريوتي : ٢٤١
فشنترأ : ٢٤٦
فلاندرز : ١٨١ ، ٢١١ ، ٢١٦
فلورنسا : ١٣ ، ١٧ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ،
٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
فوجا فيكا : ١١٢
فيتريو : ٣٠ ، ١١٤
فيتولدو : ١٣٦
فيرزولا : ٢٤٩
فيترونا (فيروما) : ٢٤٦
فيرونكا : ٢١ ، ٢٣
فيزو : ١١٠ ، ٢٢٠
فيلا ديال : ٦٦
فيتا : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
قاس : ٤٤ ، ٦٥
القاهرة : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣ ،
٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،

عاموص (قلعة) ٤٣
عسقلان : ٥٣
عكا : ٥٣
العنصرة (عيد) : ٤٣
عيسى الناصري : ٢٦
غاليولي : ١٥٥
غاليسيا : ١ ، ١٢٩
غنت : ٢١٦ ، ٢١٧
غرناطة : ٦ ، ٧
غينيا : ٨٥
فارس : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٤
فاروس : ١٠
فالا بيرنا (كنيسة) : ١٤٦
فالونا : ٣٥ ، ١٥٩
فاتو : ٢٥١
فرانشيسكو (كونت) : ١٢ ، ٣١ ، ١٦٠ ،
١٨٩
فرانشيينو كاني : ١٩١
فرارا : ١٥ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ،
٢٤٥ ، ٢٥٠
فرانكفورت : ٢١٨ ، ٢١٩
فرانكلينو : ١٥ ، ١٨٢
فردريك (الإمبراطور) : ٢٢٧
فردريك الدوق : ٢٤٠
فردند كونت فيلا ندرلندو : ١٩٩

٢٤٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٤
قشتيل الراج (جزيرة) : ٤١ ، ١٠٤
قصر التيه (ديدالس) : ٣٨
قطالونيا : ٧ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤
قطالونيون : ٤
قلمورية : ٢٥١ ، ٢٥٢
القوقاز : ١٣٤
قيصر : ٢٣
كارلا مرروزيڤي : ١٦
كارلومور سنيو : ٣٣
كارمينيا (كونت) : ١٧٧ ، ١٧٨
كارنيرو (جبل) : ١
كازاساجس : ١٠٩
كازال جيتوفيز (خصي) : ٢
كاسبرشليك : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨
كاسيوس : ٢٦
كافا ١٠ ، ٤٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٥٥
كامپيل : ٢٢٦
كامپو سانتو : ٢٤٩
كامپو دوليو : ٢٢
كامپو دي فياري : ٢٢
كاناي : ٢٤٩
كانديا (كرتيا) : ٣٨ ، ٧٧
كانديلور (لورد) : ٤١ ، ٦٠
الكتلان : ٧

٧٧ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٧
١٣٤ ، ٩٩
القبر المقدس : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٢
٢٣٠ ، ٧٩
قبرص : ١٠ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٤
٦٨ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ١٠٠ ، ١٠٢
١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٧٤
قدس الاقداس (منديج) : ٢٣
قرطاجنة : ٧
قرطبة : ١٢٠ ، ١٣٤ ، ٢٣٧
قزوين : ١٣٦
قسطنطين (ايمبراطور) : ٢٣ ، ١٤٤
١٤٥ ، ١٤٩
القسطنطينية : ١٠ ، ٣٦ ، ١٠٩
١١١ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨
١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤١
١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤
١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ٢٢٠
٢٢٦ ، ٢٤٣
قشتالة : ٣ ، ١٤٠ ، ٢٦ ، ٣١
٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٩٣
٩٦ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٩
١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٧ ، ١٥٢
١٦١ ، ١٧٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٤
٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٥

كيرارا: ٢٤٢
 كراكو: ٢٣٢
 كريت: ١٥٨، ٣٨
 كريستوفر (قديس): ١٧٥، ١٦٠
 كريكي: ٢٠٧
 كلاترافا: ١٤
 كلير (القديس): ٣٠
 كليفس: ٢١٩، ٢٠٣
 كنانى (جزيرة): ١٥٨
 كوبلنز: ١٩٩
 كوردن لنجين: ١١٥
 كورسيكا: ٢٤٨
 كورفو: ٣٦
 كوركمان: ١٣٨، ١٣٥
 كورنث: ٦٣
 كورنو: ١٥٩
 كورو: ٣٧
 كورونا (كنيسة سيدتنا): ٩
 كوس (جزيرة): ١٠٩
 كوستانزا: ٥٤
 كولاكيم: ٣٩
 كوالخيس (قلعة): ٥٤
 كولبريا (برج): ٢٥٤
 كولونيا: ٢١٠، ١٩٦
 الكولوسيوم: ٢٥
 كولونيا: ٢٠٣، ٢٠١، ١٩٩، ١٩٨، ٣١
 كونستانس: ٢١٤
 كونيسكا: ١٩٣
 كيفا: ١٣٠

كيوس: ١٣٠
 لاديسلاوس (ملك نابلي): ٣٦
 لافورد: ٣٦
 لاهالة: ٢١٢
 لبلّة (كونت): ٣، ٢، ١
 لبنان: ٥٣
 لجهورن: ١٣، ١٢
 لجهورية (ميناء): ٢٤٩
 لندفيجو: ٢٢٠
 لدويج: ٢٢٢، ٢٢٠
 لرينتشى: ١٢
 لغازر: ٥٠، ٤٨
 لسكة: ٧
 لمبارديا: ١٨٩، ١٤
 لوبنهايم: ٢٢٠
 لوردوبا شار (سوق): ١٣٨
 لورنس (القديس): ١٤٤
 لوسرما: ١٩١
 لوفان: ٢١٩
 لوقا (القديس): ٢٤٢، ١٤٥، ٢٣
 ليبارى (جزيرة): ٢٥٣
 ليبرتش: ١٣
 ليتوانيا: ١٣٦
 ليفانتين (حصن): ٢٢٠
 ليلا (ميليتاس): ٢٠٥، ٢٠٤
 ليون: ٧
 ما دالون: ٤٨
 مارتا: ٤٨
 مارتن (بابا): ٣١
 مارجرس: ٥٥، ٥٣

مايونيز : ١١٢
 الحجر : ١٥٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩
 محمد (صلى الله عليه وسلم) : ٩٠
 مدالون : ٥٠
 مدينا : ٢١٨
 مرقص (كنيسة القديس) : ١٦ ، ١٢١ ،
 ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٨
 مرمرة : ١١٤ ، ١٥٥
 مريم المجدلية : ٤٨
 مسينا (مضيق) : ٢٥١ ، ٢٥٢
 مصالة بن مصالة : ٤
 مصر : ١٣٤ ، ١٥٦ ، ١٧٣ ، ١٨٣
 المطرية : ٧٠
 مكة : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٠
 ميتليني : (جزيرة) ١١٣
 ميذا : ٥٤
 ميسيين : ٢٢٧ ، ٢٤٠
 ميلان : ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٣٠ ،
 ٢٤٥ ، ٢٤٦
 ميلانو : ١١ ، ٣٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٨ ، ٢٠٧
 مينز : ١٩٨ ، ٢٢٠
 ميورقة : ٧
 نابلي : ١٢ ، ١٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
 نارني : ٣٠
 ناصر الدين : ٥٣

ماركوس (مثال) : ٢٤
 ماري (العذراء) : ٤٥ ، ٤٦
 ماري (بيت العذراء) : ٤٤
 مارياستيلا (دير) : ١٩٤
 مارياسكبري (كنيسة القديسة) :
 ٢٤ ، ٢٦ ، ١٤٥
 مارينا (القديسة) : ١٢١ ، ١٧٥
 الماغوصة : ١٠ ، ٥٤
 مالطة : ١٥٦
 مالقة : ٦٠٥
 مالينز : ٢٠٥
 ملاسيا : ٣١
 ملطية : ١٣٢
 المنكب : ٧
 منورقة : ٧
 مودون : ٣٦ ، ٣٧ ، ١٥٩
 موديكا : ١٣
 مورافيا : ٢٣٦
 اللورة : ١٢١ ، ١٥٩
 موزن فيلرافرانكا : ٢٤٣
 موزين سوارز : ٦٨
 موسى : ٧٧
 موسين سواريس : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧
 مونت بلابجرينو : ٢٥٤
 مونت تراباني (جبل) : ٢٥٤
 مونت ساتو (جزيرة) : ١٥٦
 موتفترات : ١٧٤
 ماتوا : ١٧٤
 مونريالي (كنيسة) : ٢٥٣

هنرى (ملك) : ١٣٧
هولنده : ٦ ، ١٣٧
هيلانه (القديسة) : ٤٥ ، ٥٠ ، ١٤٤
١٤٦
هيلين (الطروادية) : ٣٨
هيلينا (القديسة) : ٢٤ ، ٢٦ ، ١٢١ ،
١٧٥
وادى الوليد : ٢٣٩
ولوس بانيجاس : ١٦٣
يافا : ٤١ ، ٥٣
اليماقية : ٤٤
يتموب جبرى : ٥٦ ، ١٠١
چوذا : ٢١ ، ٤٦
يوجين (بابا) : ١٣ ، ١٧ ، ١١١ ،
١٦١ ، ١٨٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٠ ،
يوحنا العمدان : ٤٧ ، ٤٨ ، ٢١٨ ،
٢٤٨ ،
يوحنا العمدان (أصبح) : ٣٢
يوحنا العمدان (رأس) : ٢٦
القديس يوحنا (فرسان) : ١٠٥
يوحنا (كنيسة القديس) : ٢٢ ، ٢٤
يوحنا اللاتيران (القديس) : ٢٥
بوديجو (قلعة) : ٤١
يوسف الصديق : ٧١
يوليوس قيصر : ٢٢ ، ٢٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٤
اليونان : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٧ ،
١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٤

الناصره : ٥٣
نربوية : ٧
نرمنديا : ٢١٦
نقارة : ٢٠٣
نهر الأردن : ٤٨
النمسا : ٢٣١
نوح : ٥٤
نور مبرج : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
نويشتات : ٢٤٠ ، ٢٤١
نيجرو بوتو (جزيرة) : ١٥٧
نيس : ١١١ ، ٨
نيقوسيا : ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ،
نيقوميديا : ١٥٤
نيكولا بقتيرينو : ٢٤٦
نيكولا بقتيرينو : ١٣ ، ١٨٨
نيكولادى مينون : ١١٠
نيكولودى كونق : ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ،
٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ،
٩٢ ، ٩٩
نيميجن : ٢٠٤ ، ٢١٩
نينودى كابريرا : ١٠٥
هاثر بيرك : ١٩٩
هاننيال : ٢٤٩
الهدروم : ١٤٩
المهند : ٤٤ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
٧٩ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٣٥ ،
١٤٠ ، ١٧٤